وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأنبار – كلية الآداب

دراسات عليا – دكتوراه

أ. د. عبد الستار مطلك درويش

محاضرات

الغزو الأجنبي لبلاد العرب

علاقة الدولة العربية الاسلامية الأموية بالروم البيزنطيين:

اتسمت العلاقات بين الدول العربية الاسلامية ودولة الروم البيزنطيين بأنها كانت علاقات عدائية (حربية) في الأعم الأغلب، إذ سعت الدولة العربية الاسلامية ومنذ وقت مبكر لتحرير الأراضي الشامية التي كانت ترضغ تحت الاحتلال البيزنطي، وقد نجح العرب المسلمون نجاحاً باهراً في تحرير تلك الأقاليم وعلى وجه الخصوص في معركة اليرموك الشهير التي تعد إيذاناً بتحرير الشام وابعاد البيزنطيين عن الأراضي العربية، وظل البيزنطيين يتحينون الفرص من أجل ستعادة بلاد الشام الى نفوذهم، كما وَسَعت الدولة العربية الاسلامية جاهدة من أجل المحافظة على ممتلكاتها في بلاد الشام، فاهتمت اهتماماً كبيراً في ادارة تلك الأقاليم ورعاية سكانها من أها الذمة، إذ أعطتهم الحرية في ممارسة طقوسهم، فضلاً عن تأمين حدود الدولة العربية الاسلامية من مغبة أي اعتداء بيزنطي عليها، ونجد دولة الروم البيزنطية أخذت تتحين الفرص من أجل الانقضاض على الدولة العربية الاسلامية، ففي خلافة علي بن ابي طالب (رضي الله عنه)، وعندما اشتدت الأزمة (الفتنة) بينه وبين والي الشام معاوية بن أبي سفيان نجد أن الروم البيزنطيين حاولوا استغلال هذا الظرف القائم ومعاودة الهجوم على المدن الشامية، ولكن معاوية بن ابي سفيان أرسل رسالة الى ملك الروم يهدده فيها وضمنها تهديداً صريحاً بقوله ((والله لئن لم تنتهي وترجع الى بلادك بالعين والله لأصطلحنا أنا وابن عمي عليك وأخرجنك من جميع بلادك))، فخافه ملك الروم وكف عن الهجوم وبعث بطلب الهدنة، ولما تولى معاوية بن أبي سفيان الخلافة اهتم اهتماماً بالغاً بأمر الروم البيزنطيين وهذا الاهتمام متأتي من أهمية حماية حدود الدولة من عامة الروم ولقرب الحاضرة أو العاصمة من تلك الحدود، فلذلك نجد أن الخليفة بدأ بعملية امداد الجيوش وتجهيزها والاشراف المباشر عليها بتسيير حملات منتظمة لدك المعاقل وصولاً الى أسوار القسطنطينية، وهذه الحملات سُميت بحملات ((الصوائف والشواتي))، كما اهتم الخليفة معاوية اهتماماً بالغاً بالأسطول البحري لنفس الغرض، ونجد أن الجيوش البرية والبحرية التي كان يسيرها الخليفة معاوية بن أبي سفيان كان لها الأثر الكبير في عدم اعطاء الروم البيزنطيين الفرصة من أجل تحشيد الجيوش والإغارة على ممتلكات الدولة، أي أن الروم البيزنطيين في حالة دفاع، والمتتبع لحملات الصوائف والشواتي يجد أن الخليفة معاوية كان قد اختار قيادات تلك الحملات من أشهر الرجال المعروفين بالتأني والصبر والمكيدة أي (الخطط الحربية)، واشتهر في هذه الفترة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وبشر بن أبي أرطئة ومالك بن هبيرة، كما اهتم الخليفة معاوية باقامة الثغور على طول الحدود مع البيزنطيين، ولعل من أشهر الحملات التي أرسلها الخليفة في مدة خلافته تلك التي تلك التي جعل قياداتها الى ولده يزيد بن معاوية وكان في معيته عدد من أولاد الصحابة، فضلاً عن وجود الصحابي الجليل ((أبو أيوب الأنصاري))، وقد وصلت هذه الحملة الى اسوار القسطنطينية واستشهد فيها أبو ايوب الأنصاري ودفن هناك وكانت هذه في سنة ٤٩هـ - ٥٠هـ.

في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الذي تولى الخلافة (٦٥هـ - ٨٦هـ)، شهدت الدولة نوع من الارباك وظهور حركات التمرد والحركات الانفصالية فيها، ومن أبرزها حركة عبد الله بن الزبير التي أشغلت الدولة كثيراً استغلها الروم البيزنطيين وعاودوا الهجوم على ((جبل اللكام)) وعلى وجه الخصوص على مدينة الجراجمة، وأدرك

الخليفة عبد الملك بن مروان بأن الأمر يعد في غاية الخطورة أو الصعوبة فلذلك كاتب ملك الروم البيزنطيين وعقد هدنة معه واشترط عليه ملك الروم أن يدفع مبلغ من المال للبيزنطينيين، وبالفعل نجد أن الخليفة عبد الملك كان يدفع الأموال بغية المحافظة على أمن وسلامة المدن الشامية، وفي نفس الوقت كان الخليفة عبد الملك بن مروان جاداً من أجل القضاء على حركة عبد الله بن الزبير، وما أن تخلص من عبد الله بن الزبير واستطاع أن يضم العراق والحجاز ومصر الى نفوذه حتى تفرغ للروم البيزنطيين، بعدها تحققت الوحدة العربية، لذلك عكف الخليفة على عملية اعداد الجيش وتجهيزه والاشراف عليه وقد استأنف عمليات الدفاع عن حدود الدولة العربية الاسلامية وامتنع أن يدفع الأموال للبيزنطينيين، وبعد وفاة الخليفة عبد الملك بن مروان ترك الدولة قوية يسودها الأمن والنظام وغرس في نفوس المسلمين حب الجهاد ضد البيزنطيين، ففي عهد سليمان بن عبد الملك نتلمس وجود حملات الصوائف والشواتي بشكل واضح، ففي سنة ٩٨هـ عندما كان الخليفة في بيت المقدس كشف عن عزمه على غزو القسطنطينية وفتحها، وانتخب لهذه المهمة ((مسلمة بن عبد الملك)) وتم تجهيز حملة برية زاد عدد أفرادها على مائة ألف مقاتل وأخرى بحرية، وأشرف اشراف مباشر على عملية التجهيز والانفاق عليها وزودهم بالاعطيات والمؤن والذخيرة وآلات الحصار، وفي دمشق تجمعت الجيوش المحتشدة لغزو الروم، وسار مسلمة حتى نزل ((مرج دابغ)) شمال حلب وانظم اليه المتطوعة فسار مخترقاً آسيا الصغرى ودك المدن والحصون حتى وصل الى بحر مرمرة فعبره الى الضفة الأوربية وأطبق الحصار على القسطنطينية براً وبحراً ونصب المنجنيق، وتكررت هجمات على القسطنطينية وبذل جهداً جهيداً ولكنها أخمدت بسبب مناعة أسوارها ومهارة مهندسيها وبسبب ما يمتلكونه من آلات الدفاع وخاصة قاذفات النار اليونانية، وقد تردّت أوضاعها الاقتصادية، وعرضوا على مسلمة مبلغ كبير من المال مقابل رفع الحصار لكنه كان مصمماً على الاستيلاء فقام الروم البيزنطيين بقذف الاسطول العربي بالنار اليونانية فحرقوا عدد كبير من المراكب، واستمر الحصار أشهر طوال ولكن بحلول الشتاء وشدة البرد تناقصت معنويات المسلمين ودمر الاسطول ومات عدد كبير من الخيول التي كان يمتلكها الجيش وقلة المؤن واستشهد قائد الاسطول، وفي خضم الحصار توفي الخليفة سليمان بن عبد الملك وتولى الخليفة عمر بن عبد العزيز، ونجد أن الخليفة الجديد أدرك خطورة الموقف على جبهة الروم وكثرت الخسائر لذلك قرر رفع الحصار والعودة بالجيش المتبقي.

وفي عهد الخليفة هشام نجد بأنه أرسل في سنة ١٠٠٥هـ حملة عسكرية بقيادة مروان بن محمد واستولى على مدينة ((قونية)) ثم أمدهم الخليفة بجيوش لتعزيز موقفهم فأرسل سعيد بن عبد الملك بن مروان على رأس مدد تلك الحملة ثم أتبعه بجيش آخر يقوده معاوية بن هشام بن عبد الملك ثم أمدهم بجيش آخر يقوده مسلمة بن عبد الملك، واستطاعت تلك الجيوش أن تدك المعاقل والحصون والمدن البيزنطية وايقاف هجماتهم على حدود الدولة.

من خلال ما تقدم نتلمس أن الدولة العربية الاسلامية حاولت جاهدة من أجل فتح القسطنطينية ولكن هذا الأمر لم يتحقق بسبب استبسال أهل المدينة وقوة التحصينات وامتلاكهم للخبرة في عمليات الدفاع، هذا فضلاً من امتلاكهم النار اليونانية التي كان لها الأثر البالغ في عدم فتح القسطنطينية، ومع ذلك نجد أن تلك الحملات أسهمت بشكل

فاعل في ابعاد الخطر البيزنطي وحماية حدود الدولة وأراضيها من هجماتهم، وعملية تكرارا الحملات فوتت على البيزنطيين في معاودة الهجوم على المدن الشامية وعلى الشمال الأفريقي لأنهم استعدوا للدفاع عن القسطنطينية بشكل أساسي.

كانت هذه الحملات دافعاً وحافزاً لحملات أخرى فلذلك تكررت هذه الحملات في العهد الأموي والعهود التي تلتها حتى فتحت القسطنطينية بعد سبعة قرون على يد السلطان محمد الفاتح.

العلاقات العباسية البيزنطية:

مع مجيء العباسيين إلى الحكم، اتخذت العلاقة العربية البيزنطية صفة المواجهة العسكرية، ففي عهد الخليفة المنصور كان الطابع الذي غلب على علاقته بالدولة البيزنطية هو عسكري، فلقد تركزت سياسته الخارجية أولا في الخطر المجاور لبلاده، وهو الخطر البيزنطي، وكان البيزنطيون قد انتهزوا فرصة انشغال العباسيين بمشاكلهم وثوراتهم الداخلية، وأخذوا يغيرون بقيادة الإمبراطور قسطنطين الخامس على ثغور المسلمين الممتدة من أعالي الفرات شرقا إلى البحر الأبيض المتوسط غربا فدمر حصونها وعاث فيها فسادا وتخريبا، لهذا كان أول عمل اهتم به المنصور هو إعادة تحصين تلك الثغور وتنظيم وسائل الدفاع فيها، وكانت هذه الثغور تنقسم إلى منطقتين رئيسيتين:

منطقة الثغور الشامية وتقع غرب الثغور الجزرية وقد خصصت للدفاع عن الشام ومن أهم حصونها ملطية والمصيصة ومرعش.

منطقة الثغور الجزرية وهي التي خصصت للدفاع عن الجزيرة أو شمال العراق ومن أهم حصونها طرسوس وأطنة.

واعتبرت سياسة الخليفة المهدي امتدادا لسياسة أبيه العدائية نحو البيزنطيين، فلقد واصل تحصين ثغوره المتاخمة لهم وراح يوجه إليهم الحملات المتتابعة، ولم يكتف بذلك بل قرر أن يقود إحدى هذه الحملات بنفسه سنة ١٦٥ هـ مصطحبا معه ابنه هارون. وعندما بلغ بلة أبلستين في أسيا الصغرى، اضطر المهدي للعودة إلى بغداد تاركا قيادة الجيش في يد ولده هارون، وواصل هارون زحفه مخترقا آسيا الصغرى مدمرا حصون البيزنطيين فيها حتى بلغ مضيق البوسفور.

واضطرت الإمبراطورة Irene التي كانت تحكم كوصية على ابنها قسطنطين السادس إلى طلب الصلح وعقده هدنة بين الطرفين سنة ٧٨٢/١٦٥ لمدة ثلاث سنوات تعهدت فيها بدفع جزية سنوية، وقد أظهر هارون في هذه الغزوة من الشجاعة والبسالة ما أهله حمل لقب الرشيد. وهكذا بقيت علاقة الرشيد بالبيزنطيين علاقة حرب وعداء، فالرشيد واصل استكمال تحصينات ثغوره المتاخمة للبيزنطيين وأقام منطقة جديدة بين شمال الجزيرة

وشمال الشام أطلق عليها اسم منطقة العواصم أي التي يعتصم فيها الجند وجعل قاعدتها مدينة منبج في شمال شرق حلب ورتب فيها جيشا دائما، كذلك اهتم بمنطقة الثغور الشامية التي على الحدود بين آسيا الصغرى وسوريا، فعمر فيها طرسوس وأطنة أو أدنة وعين زربه. كما أقام فيها حصونا جديدة مثل الهارونية بين مرعش وعين زربه، وبلغ من اهتمام الرشيد بمناطق الثغور أن ولى عليها ابنه الثالث أبا القاسم الملقب بالمؤتمن. وسبق الإشارة إلى الحملة الضخمة التي قادها الرشيد وهو أمير ضد الإمبراطورة \"ايرين\" انتصر عليها وقد ظلت ايرين بعد ذلك تدفع الجزية السنوية إلى أن ماتت، ثم خلفها الإمبراطور نقفور الأول سنة ٨٠٢ الذي نقض الهدنة وطلب من الرشيد أن يرد إليه الجزية التي دفعتها ايرين من قبل معللا ذلك بقوله في خطاب له إلى الرشيد:

"من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب، أما بعد فإن الملكة التي كانت قلبي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مقام البيدق فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثالها إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فأردد ما حصل قبلك من أموالها، واقتد نفسك بما يقع به المبادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك".

وقد غضب الرشيد من هذه الرسالة غضبا شديدا ورد عليها برسالة مماثلة قال فيها \"بسم الله الرحمن الرحيم: من هارون أمير المؤمنين، إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك، والجواب ما تراه دون ما تسمعه والسلام".

ثم خرج الرشيد على رأس جيش كبير بلغ تعداده ١٣٥ ألفا سوى الأتباع والمطوعة، وتوغل في آسيا الصغرى حتى بلغ مدينة هرقلة عاصمة كورة بيثينيا فحاصرها واستولى عليها عنوة سنة ٨٠٦ م وأعقب ذلك توجيه حملات متلاحقة بقيادة كبار قواده أمثال داود بن عيسى، وشراحيل بن معن بن زائدة ويزيد بن مخلد، هزمت جيوش البيزنطيين ودمرت حصونهم واضطر الإمبراطور نقفور أن يتناسى خطابه ويعترف بهزيمته ويتعهد بدفع الجزية من جديد

أما عن علاقة المأمون بجيرانه الروم أو البيزنطيين، فكانت سياسة عدائية على غرار آبائه من قبل، ويستفاد من كلام المؤرخين أن المأمون استغل فرصة الفتنة الداخلية التي تزعمها توماس الصقلي ضد الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني سنة ٨٢١ م، وأخذ يمده بالمال والسلاح كي يعينه على فتح القسطنطينية والاستيلاء على الحكم، كما أوعز إلى بطريق القسطنطينية أن يتوج هذا الثائر امبراطوراً ليصبغ حركته بصبغة شرعية، ولكن الدولة البيزنطية كشفت أخبار هذه الاتصالات وانتهى الأمر بهزيمة توماس الصقلبي وقتله على أبواب القسطنطينية سنة ٨٢٣ م. ولم يتردد المأمون في السنوات الأخيرة من حياته من قيادة جيوشه بنفسه والتوغل في الأراضي البيزنطية بآسيا الصغرى. وكان في بعض الأحيان يسند قيادة تلك الحملات إلى ابنه العباس، وقد كانت وفاة المأمون في آخر غزوة من غزواته في الأراضي البيزنطية شمالي مدينة طرسوس نتيجة لإصابته بالحمى هناك.

وفي فترة حكم المعتصم الذي خلف أخاه المأمون استمرت المواجهة العسكرية بين العباسيين والبيزنطيين، ولعل أبرز الأحداث العسكرية التي اشتهرت في عهد المعتصم، هي انتصاره الحاسم على البيزنطيين في عمورية بآسيا الصغرى بسنة ٨٣٨/٢٢٣ ومن أخبار هذا الحدث العسكري الهام أن الإمبراطور تيوفيل البيزنطي انتهز فرصة انشغال المعتصم في مطاردة الخرميين وأغار على الحدود الإسلامية وهاجم مدينة \"زبطة\" وهي أقرب الثغور الإسلامية إلى بلاد الروم، فأحرقها وخربها وقتل رجالها وسبى نساءها وأطفالها. وغضب المعتصم لهذا الحادث خصوصا وأنه كان يعتز بهذه المدينة لأنها كانت مسقط رأس والدته ويضيف ابن الأثير أن امرأة هاشمية أخذت تصيح عندما وقعت في أسر الروم: \"وامعتصماه\" فلما بلغ ذلك المعتصم أقسم بأن ينتقم من الروم وأن يخرب مدينة عمورية مسقط رأس والد الإمبراطور البيزنطي وأهم مدينة في الأناضول.

ثم جمع المعتصم جيشا كبيرا تولى قيادته بنفسه، ويقال أن اسم عموريه كان منقوشا على درع كل جندي من جنود المسلمين وتقدم المعتصم بجيوشه حتى التقى بجيش \"تيوفيل\" فهزمه وخرب مدينة أنقره، ثم حاصر مدينة عمورية التي تقع بجوار أنقرة، وبعد حصار شديد تمكن المعتصم من اقتحام المدينة عنوة وتخريبها وأسر من فيها، وهكذا انتقم المعتصم من الروم على ما فعلوه في زبطرة وكان انتقاما رائعا وصفه الشاعر أبو تمام بالقصيدة التي مطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب * * * في حده الحد بين الجد واللعب

وهكذا بقيت العلاقات العربية البيزنطية مضطربة ويشوبها الحذر ويغلب عليها طابع العداء، ذلك لأن الدولة البيزنطية وبالرغم من خسارتها للعديد من المناطق، كانت تنتهز الفرصة وتهاجم الثغور الإسلامية، مما نتج عنه معارك وحروب بين الطرفين استمرت فترة طويلة من الزمن.

تميزت العلاقات العباسية البيزنطية بأنها في معظمها حربية عدائية سعت من خلالها الدولة البيزنطية الى اعادة نفوذها الى المنطقة، مستغلة حالات الضعف التي كانت تمر بها الدولة العباسية أحسن استغلال لصالحها. فكانت توفق في بعض الأحيان وتفشل في أحيان أخرى، فضلاً عن الخسائر الجسيمة التي كانت تتكبدها الدولة البيزنطية في الأموال والأنفس، ونجد في معظم الأحيان أن الدولة البيزنطية كانت هي التي تبدأ بالتعرض للحدود العباسية وهي التي دائماً تنقض معاهدات الصلح.

ولقد استغلت الدولة البيزنطية انتقال العاصمة الاسلامية من دمشق الى العراق حيث تحول مركز الدولة من منطقة قريبة من حدود الدولة البيزنطية الى منطقة ابعد، وانشغلت الدولة العباسية ببعض المشاكل الداخلية التي جعلتها تهمل الحدود. ففي عهد الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح استغلت الدولة البيزنطية الأوضاع الداخلية فقامت بالتعرض لحدود الدولة العربية مستغلة سقوط الدولة الأموية وانشغال العباسية بأوضاعها الداخلية، وبعد أن استقر الوضع الداخلي أعدت الدولة العباسية حملة عسكرية كبيرة وخصصت لها الأموال وعينت عبد الله بن علي على رأس الحملة وأشرف أبو العباس على اعدادها ومتابعة أمورها، وعند وصول الحملة الى منطقة دلوك توفي

ابو العباس السفاح وانشغل قائد الحملة بالمطالبة بالعرش العباسي وشتت جهود هذه الحملة التي لو قدر الله لها النجاح لغيرت مجمل الأوضاع.

وفي عصر أبو جعفر المنصور فقد سعى الخليفة أبو جعفر المنصور جاهداً لاعادة بناء الحصون التي هدمها البيزنطيون وعمل على تحصين الحصون القديمة وتجديد أسوارها حيث كانت الثغور مقسمة الى قسمين الثغور الجزرية ومهمتها الدفاع عن منطقة الجزيرة الفراتية ومن حصونها ملطية والمصيصة ومرعش. والثغور الشامية ومهمتها الدفاع عن بلاد الشام ومن حصونها طرسوس وأذنة. كما استعاد مدينة ملطية وحصنها ورممها وشحنها بالمقاتلة، وحصّن الثغور وأعاد بنائها وجعل لها حكماً ادارياً مستقلاً وحشد فيها آلاف من المقاتلين المرابطين ومنحهم الاقطاعات الزراعية لأجل أن يستقروا، ووزع عليهم الأموال ونظم حملات الصوافي والشواتي وكانت هذه الحملات تنطلق سنوياً براً وبحراً.

وبهذا وضع أبو جعفر المنصور حداً لتجاوزات الدولة البيزنطية وأوقفهم عند خط جبال طوروس، ونتيجة لهذه السياسة ولقوة الدولة العباسية فقد جرت سنة ١٣٩هـ أول عملية فداء، حيث امتازت الحملات في عصر المنصور بأنها حملات برية وبحرية في آن واحد، وقد سجلت حملتان بحريتان في عهد أبو جعفر المنصور، الأولى توجهت الى جزيرة قبرص واستطاعت أن تأسر حاكم الجزيرة سنة ١٥٦هـ، والثانية سنة ١٥٧هـ بقيادة ثمامة بن وقاص والتي توجهت الى سواحل بلاد الروم، وقد حاولت بعض قطع الاسطول البيزنطي قطع الامدادات عن الحملة بأمر من قسطنطين الخامس الا أن تصادم قطع اسطول الاسلام أفقد الخطة.

وفي عهد الخليفة المهدي والذي وافق اعتلاء ليو الرابع للعرش البيزنطي، حيث بادر ليو الرابع فأطلق كل الأسرى المسلمين وبالمقابل أطلق المهدي الأسرى البيزنطيين، ولهذه بادرة حسنة بعد أن رتب ليو الرابع الأوضاع الداخلية فقد أعد حملة عسكرية كبيرة الى الحدود الاسلامية فشن هجوماً على سمياط سنة ١٥٩هـ وأسر بعض الأسرى فأرسل المهدي أحد قواده على رأس حملة فأنقذ المدينة من السقوط بيده، وقد أغضبت الحملة الخليفة المهدي فأرسل جيشاً بقيادة عمه العباس بن محمد والذي استطاع أن يصل الى أنقرة وفتح قلعة كاسف في كياووس، وفي سنة ١٦١هـ توجهت حملة عباسية بقيادة ثمامة بن الوليد والتي أغارت على المناطق المحيطة بدابق شمالي مدينة حلب. وقد ردّ الامبارطور البيزنطي على هذه الحملة فأرسل جيشاً حاصر مدينة مرعش وأفرز قوة عسكرية لاعاقة ثمامة الذي جاء لنجدة مرعش وسيطرت القوات البيزنطية على عدة قرى في المنطقة لكن الجيش البيزنطي فشل في دخول مرعش لعنف المقاومة التي تلقوها والخسائر التي تكبدها الجيش أثناء فترة الحصارن فأثارت هذه الحملة على مرعش قلق الخليفة العباس فجهز جيشاً بقيادة القائد الحسن بن قحطبة وطلب منه التوغل داخل الأراضي البيزنطية، واستطاع أن يقترب من عمورية، لكن نقص الامدادات ونقص العلف أجبرت الجيش للعودة الى الحدود الاسلامية، ثم قامت الدولة البيزنطية هجومها في سنة ١٦٣هـ فأغارت على المدن، ثم ردّ الجيش

العباسي بقيادة هارون الرشيد بجيش صوب الأراضي البيزنطية وفتح عدد من الحصون والمطامير من بينها حصن سمالو، ثم حدثت داخل الدول البيزنطية أمور داخلية فتوقف النشاط البيزنطي وهي:

١- وفاة الامبراطور ليو الرابع وتولي أيرين عرش الامبراطورية كوصية على أبنها قسطنطين السادس.
٢- تعرضت الدولة البيزنطية لثورة كبيرة في صقلية فاضطرت توزيع قواتها ما بين صقلية والجبهة الاسلامية.

وفي سنة ١٦٤هـ وجه المهدي الصائفة وأسند قيادتها الى عبد الكبير بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، الا أن الجيش البيزنطي قطع الطريق عليه وانتصر عليه، وقد استغل المهدي الأوضاع القلقة وأرسل حملة ضخمة أعدها بنفسه وأشرف عليها وعهد بقيادتها الى الرشيد وأمره بمهاجمة القسطنطينية، وقد هاجمت الحملة المناطق الاستراتيجية من أجل التمويه، وواصل الجيش زحفه صوب العاصمة ولم تعيقه العقبات التي وضعت أمامه من أجل أن تثنيه عن هدفه فاضطرت ايرين على قبول الصلح وفق الشروط التالية:

١- تدفع الدولة البيزنطية ما بين ٧٠٠٠٠ الى ٩٠٠٠٠ دينار سنوياً.
٢- تلتزم بيزنطة فتح الأسواق لتجار المسلمين.
٣- تمد بيزنطة الجيش الاسلامي بالأدلاء في طريق العودة.
٤- يسمح للجيش حمل الغنائم.
٥- مدة الصلح ٣ أعوام.
٦- تبادل الأسرى بين الطرفين.

وهي أكبر حملة تعرضت لها القسطنطينية.

أما في عصر الرشيد فقد استمر الصراع بين البيزنطيين والدولة الاسلامية، أي أن الحروب بينهما لم تسر وفق خطة معينة بهدف الفتح والاستقرار ولكن لغرض السيطرة وفرض الجزية.

وقد وجه الرشيد اهتمامه الى تحصين المناطق الحدودية للدولة البيزنطية وتقوية الجيش العباسي وحرصت على سياستين هجومية ودفاعية، فأنشأ مناطق على الحدود داخل وحدات ادارية، وقد اهتم الرشيد بالاسطول فعزز مواقعه بالجند والسفن، وحصّن الثغور البحرية، ففي سنة ١٧٤هـ هاجم الاسطول البيزنطي السواحل الاسلامية وأسر بعض المسلمين في البحر المتوسط، فتحرك الاسطول الاسلامي من مصر الى قبرص ثم اتجه الى آسيا الصغرى والتحم مع الاسطول البيزنطي فهزمه، وأسر أمير البحر البيزنطي، ولكي نؤكد اهتمام الرشيد بمنطقة الثغور فقد نقل مقر اقامته من بغداد الى الرقة ليكون قريب من الأحداث حتى يصدر أوامره بصورة مستعجلة.

وجه الرشيد بعض الحملات وعهد بقيادتها الى بعض القادة، ففي سنة ١٨١هـ قاد الرشيد حملة كبيرة الى حدود الدولة البيزنطية لملاقات قسطنطين السادس لكن الامبراطور رجع الى القسطنطينية حيث خلع وأصبحت أمه

أيرين امبارطورة فاستطاع الرشيد فتح حصن الصفصاف ووجه عبد الملك بن صالح على رأس قوة عسكرية فبلغ أنقرة وافتتح مطمورة فطلبت أيرين الصلح فرفض الرشيد طلبها لأن البيزنطيين عندما تُسد في وجوههم الطرق يطلبون الصلح، ثم وافق الرشيد على عقد الصلح فقد حصل أول فداء في عهد الرشيدفتولى الفداء القاسم بن الرشيد ففودي ٣٧٠٠ أسير من المسلمين وأهل الذمة، ونصت المعاهدة على ما يلي:

١- تبادل الأسرى.
٢- تدفع أيرين ضريبة سنوية مقدارها ما بين ٧٠٠٠٠ الى ٩٠٠٠٠ دينار سنوياً.
٣- مدة الهدنة أربعة اعوام.

استمرت الهدنة حتى سنة ١٨٧هـ حين دبرت مؤامرة على أيرين حيث خُلعت من العرش واعتلى نقفور الأول العرش، فرفض دفع الجزية للمسلمين فأرسل كتاب يهدد الرشيد ويتوعد له جاء فيه ((من نقفور ملك الروم الى هارون ملك العرب أما بعد فان الملكة التي كانت قبلي قد اقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيدق ... ولكنه حمق النساء وجهلهن فاذا قرأت كتابي هذا فاردد ما حصل لك من أموالها وافتد نفسك والا فالسيف بيني وبينك))، قرأ الرشيد الكتاب فكتب على ظهر الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم. من هارون الرشيد امير المؤمنين الى نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة. والجواب ما تراه دون أن تسمعه والسلام)، فسار الرشيد على رأس جيش كبير احتل حصن الصفصاف وفتحه واستولت مقدمة الجيش على أنقرة وتقدم نحو نقفور وطلب الصلح من الرشيد فقبل الرشيد بشرط أن لا يبني نقفور الحصون المهدمة وأن يدفع على كل سالم في الروم جزية سنوية مقدارها دينار واحد ويعفى الامبراطور وابنه منها، فرجع الرشيد وبرجوعه استغل نقفور البرد وسقوط الثلج فنقض الصلح الكنيسة السوداء وأذنه واستولى على طرطوس وضيق على مرعش فلم يستطع المسلمون صد الهجوم لانشغال الرشيد بقمع الحركات الداخلية، فاستطاعت حامية المصيصة من مهاجمته واستعادت منه معظم الأسرى فضلاً عن الغنائم التي حصل عليها.

فأعاد الرشيد الكرة عليه سنة ١٩٠هـ وجرت معركة أعنف من الأولى اندحر فيها نقفور، حيث تم السيطرة على أنقرة وهرقلة وطوانة فطلب الصلح فضاعف الرشيد عليه الجزية وفرض عليه وعلى ابنه الجزية كما تم مبادلة الأسرى ومدة الهدنة ٣ أعوام، لكن نقفور لم يرض بالمهادنة التي فرضت عليه، فأعاد تحصين الحصون التي تعهد بعدم تحصينها فعلم الرشيد فجهز له حملة عسكرية استطاعت أن تحقق النصر على الجيش البيزنطي.

أما في عصرالمأمون فقد اتسمت بالطابع الحربي، وسار المأمون على خطة والده الرشيد في تحصين الثغور، ولكن بعد سنة ٢٠٥هـ وذلك لعودة المأمون من مرو انشغلت الدولتين بمشاكلها الداخلية.

ولكن مجيء ميخائيل الثاني تجددت الحركات على الحدود فكانت الدولة البيزنطية تقوم بتحريك حركات العصيان داخل الدولة العربية وتمدها بالأموال.

وقد استغل المأمون الأوضاع البيزنطية فأيد حركة توماس الصقلي وأمده بالأموال والخبرة لكن الحركة فشلت، وأثناء انشغال المأمون بأوضاع مصر الداخلية سنة ٢١٥هـ قام البيزنطيين مستغلين الفرصة وهاجموا طرطوس والمصيصة وقتلوا عدد من الأسرى المسلمين وتوجه اليهم المأمون وقاد الصائفة ضدهم ففتح عدة مطامير واحتل هرقلة القريبة من عمورية فأرسل توفيل بن ميخائيل رسالة الى المأمون يطلب الصلح فعرض ما يلي:

١- عقد هدنة لمدة ٥ سنوات.
٢- الانسحاب من الحصون التي احتلها المسلمون.
٣- دفع جزية سنوية مقدارها مائة ألف دينار سنوياً.
٤- اعادة بقية الأسرى وعددهم ٧٠٠٠ أسير.

لكن المأمون رفض العرض بسبب أن البيزنطيين دائماً ينقضون العهود، وفي سنة ٢١٥هـ توجه المأمون الى حدود الدولة البيزنطية وفتح حصن لؤلؤة وبنى حصن الطوانة، وبعد هذه الحملة أرسل توفيل رسالة الى المأمون يعرض عليه الصلح واستمر المأمون بتحصين الثغور فحصّن مدينة الطوانة سنة ٢١٨هـ وأتى بالجند الى العواصم من العراق وسوريا ومصر والجزيرة العربية وأراد من ذلك فتح القسطنطينية الا أن الوفاة عاجلته.

أما في عهد المعتصم سار على سياسة أخيه المأمون بتحصين الثغور والعواصم، ففي عام ٢٢٣هـ توجه ميخائيل صوب العواصم والثغور فدخل زبطرة وسبى أهلها فقتل من النساء والرجال وسبى الذراري وأغار على أهل ملطية وسبى النساء ومثّل بالأسرى وسلّ أعينهم وقطع انوفهم فأخذهم الى القسطنطينية، وعندما سمع المعتصم بالله كبّر لديه وصاح في قصره النفير النفير وجمع العساكر ووجههم الى بلاد الروم، وقد جهز المعتصم بالله جهازاً قوياً من السلاح والعدد والعدة، وعندما تكاملت العساكر تحرك من سامراء صوب الدولة البيزنطية، وسأل عن اعظم مدينة بعد القسطنطينية فقيل له عمورية فأمر بكتابة اسم عمورية على الأعلام والدروع لكي يكون هدف الحملة، وعندما وصلت الجيوش الى حدود بيزنطة لم تسعها الدروب فقام الخليفة بتقسيمها، توجهت كل الجيوش صوب عمورية وفرض عليها الحصار وطمّ خندقها، وبدأت الجيوش العربية عملها بمختلف الصنوف والأسلحة حتى هدم السور وسقطت المدينة على الرغم من عظم الجيش المتواجد فيها ثم أمر المعتصم بحرق المدينة.

أما زمن الواثق، وصل وفد من بيزنطة يطلب مبادلة الأسرى فوافق الواثق على ذلك وعقد لأحمد بن سعيد وأمره بحضور الفداء مع خاقان الخادم.

أما في عصر المتوكل، اتسمت بالعلاقات الحربية وكالعادة كانت الدولة البيزنطية تتحين الفرص للاغارة على الدولة الاسلامية، فقد أغارت مراكب بيزنطة على دمياط سنة ٢٣٨هـ ونهبوا ما بها وأحرقوا المساجد وسبوا النساء، وفي سنة ٢٤١هـ أغار البيزنطيون على عين زربة وأسروا من كان فيها، وفي سنة ٢٤٢هـ أغاروا على الأراضي الواقعة شمال العراق فهاجموا سميساط وآمد وأسروا المسلمين، وتوجهت عدة حملات برية في عهد المتوكل بقيادة بغا الكبير سنة ٢٤٤هـ فافتتح صيله، أما علي بن يحيى الأرمني غزى بصائفة سنة ٢٤٥هـ، وفي

نفس السنة هاجمت الروم على سمياط وسبوا من أهلها الكثير وتوجه عمر بن عبد الله الأقطع ففتح قربياس وتوجه الفضل بن قارن في ٢٠ مركباً ففتح حصن انطاكية. أما في فترة الفوضى العسكرية فقد استمرت العداءات العسكرية بين الدولتين.

الحروب الصليبية:

ان تسمية الحروب التي وقعت ما بين المحاربين القادمين من أوربا الى البلاد العربية، فالبعض يصطلح على تسميتها بالحروب الصليبية على اعتبارها حرب دينية بين الاسلام والمسيحيين لأن المشاركين في هذه الحملات كانوا قد حملوا الصليب، كما أنهم كانوا قد قاموا بخياطة الصليب بالقماش الأحمر على صدور المحاربين، والبعض يسميها بحروب الفرنجة وهذه التسمية قد حاول من أطلقها بتجريدها من العامل الديني واعتبر هذه الحروب هي حروب ما بين الشرق والغرب، ونلاحظ بأن الحملات الصليبية تعددت، وكانت أول هذه الحملات سنة ١٠٩٥م واستمرت الى ١٢٩١م، ويشمل الرقم الأخير خروج الصليبيين من آخر معقل لهم في عكا، بلغت الحملات الصليبية ثمان حملات اتجهت أربعة منها الى بلاد الشام، الأولى والثانية والثالثة والسادسة، أما الحملة الخامسة والسابعة اتجهت الى مصر، والحملة الثامنة نزلت بتونس، أما الحملة الرابعة فاحتلت القسطنطينية.

وهناك عدد لا يحصى من الحملات الصغيرة حتى أنه لا تمر سنة من السنوات الا وخرج فيها بعض الصليبيين، حتى أن بعض المؤرخين يرون بأن الحروب الصليبية لازالت مستمرة ولم تنتهي في التاريخ الذي حددناه آنفاً ١٢٩١م، فاعتبروا الصراع بين العثمانيين وأوربا هو جزء متمم للحروب الصليبية، وما حدث في القرن العشرين من أحداث سياسية يعد جزء من الحروب الصليبية، وما تتعرض له بلدان المشرق العربي وعلى وجه الخصوص الحملة ضد ليبيا والحملة الأطلسية ضد العراق في جزء من المخططات الصليبية بغية تحجيم دور المواطن العربي المسلم الحضاري والعلمي والديني لأنهم لا يريدون لشعوب هذه المنطقة أن تتبؤ مكانة سياسية، ولا يريدون للدين الاسلامي أن ينتشر، فإذن مساعيهم هي جزء من الحملات الصليبية.

اذن فالحروب الصليبية هي صراع فريد من حيث الأبعاد والزمن بين الشرق والغرب في العصور الوسطى والدور الذي لعبته الكنيسة مركز النظام الاقطاعي في اشعال الحرب، ومن خلال القاء الضوء على مقدمات هذه الحروب يتضح لنا من أن هناك أوضاع أدت الى قيام الحروب الصليبية تشتمل على أوضاع أوربا وعلى أوضاع العالم الاسلامي بما كان يعانيه من ضعف، والبعض يرى ان سقوط الأندلس يعد فصلاً من فصول النزاع بين الشرق والغرب، إذن فالحروب الصليبية نتجت من أسباب اجتماعية واقتصادية وسياسية ودينية التي سادت أوربا في القرن الحادي عشر الميلادي. واتخذت أوربا من استغاثة الامبراطور البيزنطي ستاراً دينياً لكي تخرج من مأزقها، وسوف نعرض هذه العوامل والأسباب:

العوامل التي أدت الى قيام الحروب الصليبية:

١- شهد القرن الحادي عشر توطيد النظام الاقطاعي، وسادت مؤسساته أرجاء أوربا الغربية فرنسا وانكلترا وألمانيا.

٢- ظهور المدن وتنامي العلاقات التجارية أدت بالتالي الى ظهور مدن أخرى وهذا أدى الى تراجع الاقتصاد المحلي الذي كان ابرز سمات الاقتصاد الغربي حيث كانت الاقطاعية هي وحدة الانتاج المركزي مكتفية ذاتياً بما تنتجه.

٣- ظهور النقود في التداول اليومي بدل النظام القديم المقايضة وهذا أدى الى تغير في مستوى حاجات الطبقتين الرئيسية في المجتمع الأوربي ساد الاقطاعيون والنبلاء والأقنان، فقد كان الاقطاعيون يكتفون بالواردات العينية وأعمال السخرة من الأقنان، ولكن ظهور المدن ونمو حركة التجارة أدى الى تعاظم حاجياتهم، وهذا أدى الى فرض الضرائب النقدية بدل العينية وبالتالي أرهق هذا النظام الفلاحين والأقنان.

٤- الحروب الداخلية المستمرة بين الأمراء الأقطاعيين التي عمّت أنحاء غرب أوربا، فالقرن العاشر والحادي عشر كانت عاملاً مهماً في تدهور أحوال الريف واستشراء الفوضى بسبب فقدان الدولة القوية.

٥- سوء المواسم الزراعية بسبب الكوارث الطبيعية فعمّت المجاعات أرجاء الريف ولجأ الناس الى أكل الحشائش وانتشرت حالة العوز والقحط ورافقتها انتشار الأوبئة.

٦- غارات عصابات الفرسان المستمرة أدت هذه العوامل الى خروج عدد كبير من الفلاحين من القرى والأرياف الى المدن وهذا أدى الى تطور اجتماعي خطير يتمثل في ظهور حالة التقشف.

الشيء الثاني ظهور ما يعرف بالزهد الديني وانتشار الخرافات والاعتقاد بالقوة الغيبية والنظرة الى الظواهر الطبيعية وكأنها علامات خارقة، أيضاً اشتداد الهوس الديني وروح الشك بين الفئات الدنيا في المجتمع، وهذا أدى بالتالي الى استعداد عامة الناس لفكرة المأثرة الدينية، وان تعاظم الميول الدينية كانت مقرونة بحياة البؤس والعوز وسيطر على الفلاح شعور بسبب الجهل أن البلايا الاجتماعية والطبيعية ما هي الا عقاب من السماء بسبب خطايا مجهولة، ولذلك انبثقت المشاعر الغامضة ولا يمكن التخلص منها الا بطلب الرحمة من الرب عن طريق تحقيق مأثرة دينية بطولية بالتكفير عن الذنوب عن طريق الاستشهاد.

٧- أما فيما يتعلق بالطبقة الاقطاعية فانالأوضاع الاقتصادية المتدهورة حسنت مصالحهم بشكل مباشر، فالنظام الاقطاعي ارتبط بالأرض وفق ما يعرف بنظام البكورة، وهذا النظام يقضي بأن تكون ملكية الاقطاعية بعد وفاة المالك الأصلي للأبن الأكبر، أما سائر الأبناء الآخرين فيتقاسمون فيما بينهم الأموال المتروكة والأسلاب الأخرى، فلذلك ظهرت لنا اعداد كبيرة من هؤلاء المحرومين من الملكية الاقطاعية وفق نظام البكورة، فسعى هؤلاء الى اثارة المشاكل والى تكوين ما يعرف بعصابات الفرسان ومارسوا

عمليات سلب ونهب على الاقطاعيات، كما أنهم لجأوا الى العنف المسلح وأصبح القتال حرفة لهم فقاموا يجوبون القرى وينهبون كل ما تقع عليه أيديهم، والى جانب عمليات السلب والنهب عمدوا على قتل الأسرى واشعال النيران في القرى وقطع الطرق وسلب المسافرين، كما شن هؤلاء الغارات على الاقطاعات الكبيرة وخاصة اقطاعيات الكنيسة وشملت هذه العمليات المزارعين والتجار والمسافرين، ولكن الضرر الأكبر وقع على الكنيسة وهذا الأمر أقلق الوسط الاقطاعي وبدأوا بالتفكير بشكل جدي للخروج من هذه الأزمة وأخذت الكنيسة على عاتقها مهمة اصلاح الأوضاع العامة التي سادت أوربا بسبب هذه العوامل التي أدت الى القحط والعوز والبوار في المواسم الزراعية، فضلاً عن حالات القتل والسلب والنهب، فلذلك عمل رجال الدين والطبقة الارستقراطية الى تقوية سلطات الكنيسة ونفوذها، فنشطت الأديرة الى اجراء اصلاحات مهمة هدفها العام توطيد موقع الكنيسة وموقفها ورفع مكانتها في أوربا، وبرز نشاط رجال الدين في (دير كلوني) بفرنسا وسميت بالحركة الكلونية وكان هدفها:

أ- اعادة هيبة البابوية.

ب- تحقيق اشراف مركزي على الكنائس من قبل البابوية عن طريق ربط الفروع بالأصل في روما.

جـ - السعي لتقليص العمليات الحربية باصدار ما يعرف بالهدنة الربانية التي منعت فيها القتال من مساء الخميس حتى صباح يوم الاثنين وأيام الأعياد والصيام، ولكن هذه لم تلق نجاح واضح بسبب تعنت الفرسان الاقطاعيين، ولذلك لم تنجح الكنيسة ولا الاصلاحات في تحقيق نتائج جديدة في هذا المجال لذا فقد بدأت الكنيسة تفكر في الحروب الصليبية على اعتبارها خير وسيلة لابعاد هؤلاء المارقين على القانون والعابثين في أوضاع تلك المجتمعات في أوربا.

٨- ظاهرة الحج الى الأراضي المقدسة، وهذه الظاهرة زادت بشكل ملحوظ في القرن الحادي عشر الميلادي، كان الحج الى بيت المقدس في القرن الرابع الميلادي فردي وكانت ((أورشليم)) بيت المقدس المكان الأفضل عند الحجاج، حيث يعتقدون أن زيارتها تمحي الذنوب، وكان الحجاج اذا عادوا الى أوربا يحتفظون برداء الحج كي يكون كفن لهم عند وفاتهم. وفي القرن الحادي عشر زاد عدد الحجاج حتى بلغت ١٧ رحلة ضمت احداها أكثر من ١١ ألف شخص معظمهم من رجال الدين والفرسان، وكان هؤلاء مسلحين على عكس الرحلات الأولى السلمية، وهذا الأمر ولّد شعور بتخليص الأماكن المقدسة بقوة السيف من تبعيتها للدولة العربية الاسلامية، وهذه الزيادة جاءت متزامنة مع زيادة الشعور الديني الذي عبر عنه ببناء ((الكاتدرائيات الكبيرة)) وحركة كلوني وتشييد الفنادق على جوانب الطرق لكي يرتادها الحجاج، كما ساعد دخول هنكاريا الى المسيحية في القرن الحادي عشر في فتح الطريق البري الى الشام، وهذه الرحلات أدت للتمهيد للحروب الصليبية.

٩- كما مهد للحروب الصليبية الموقف بين الاسبان والعرب المسلمين وخسارة العرب للأندلس إذ زادتهم هذه الخسارة اصراراً في مواصلة مطاردة العرب وطردهم من فلسطين والاستيلاء على بيت المقدس.

١٠- كان هدف الكنيسة الغربية التوسع والعمل لضم الكنيسة الشرقية الأرثوذكسية.

١١- كما شكل تقدم السلاجقة الى مشارف آسيا الصغرى في النصف الثاني من القرن الحادي عشر وخسارتهم في معركة ملاذكرد سنة ٤٦٣هـ إذ أخذت بيزنطة تسعى لطلب المعونة من الكنيسة الغربية لانقاذها من الخطر السلجوقي، وفي مثل هذه الظروف تسلم البابا أوربان الثاني في سنة ١٠٩٥م نداء الاستغاثة من الامبراطور البيزنطي كومنين يطلب فيه المساعدة العسكرية لايقاف الزحف السلجوقي الاسلامي، فوجدها البابا فرصة سانحة لتوحيد الكنيستين، ولفرض سلطته على الأجزاء الشرقية، فاتجه البابا الى فرنسا وزار الأديرة الكلونية ودعا لاعداد حملة صليبية الى الشرق، واستقطب زيارة البابا اهتمام الناس وعقد اجتماع في كليري مؤقت وتوافد عليه آلاف من رجال الدين والفرسان وعامة الناس، واستغرق الاجتماع اسبوعاً كاملاً من ١٨ الى ٢٥ تشرين الثاني من سنة ١٠٩٥م، وألقى البابا خطاب حماسي أمام هذا الحشد بأسلوب بلاغي جذاب حتى عد هذا الخطاب بأنه أول نداء للحروب الصليبية وقد تضمن الخطاب الآتي:

١- دعا النصارى لحمل السلاح ضد المسلمين.

٢- تخليص قبر المسيح وبيت المقدس من أيدي (الكفار) المسلمين.

٣- وعد المشتركين بغفران الخطايا أو الذنوب وبأنهم سوف يحصلون على الثواب الأبدي في دار الخلودز

٤- وعدهم بمنافع مادية تتمثل بالأرض التي سوف يستحوذون عليها وسوف توزع على شكل اقطاعيات، ووصف هذه الأرض بأنها أرض العسل واللبن، وأشار الى أن القدس هي محور الكون وأرض خصب وعطاء، ووصفها بأنها الجنة الثانية أي الجنة الأرضية.

٥- وقال في خطابه اذهبوا فلا خوف على عوائلكم وأموالكم انها تحت حماية الكنيسة، أي أن موضوع عوائل المقاتلين وأملاكهم في حماية الكنيسة، ثم أخذ يتجول في الكنيسة وأرسل مبعوثين ينوبون عنه في الدعوة الى الحرب الى كل من جنوة وفينّا وبيدة والمدن الواقعة بمحاذاة نهر الراين، ومن الذين استجابوا لنداء الحرب:

أ- المؤمنين بثواب الآخرة.

ب- الفرسان.

جـ - المغامرون.

كما أن عدد كبير من اشترك في هذه الحملات من الرقيق والأقنان ومن الطبقات الذين سعوا لطلب الرزق، كما أن ممن اشترك في هذه الحملات التجار الذين كانوا يبحثون عن الثراء والاستثمار، كما أن الأقنان اشتركوا للتخلص من عبوديتهم، كذلك التحق المجرمون ممن التحق بهذه الحملات هرباً مما اقترفت أيديهم، والمشردين والسجناء الذين أطلق سراحهم في هذه الحملات والهاربون من العدالة، كما اشترك في هذه الحملات المحرومين من الأرث الملكية وفق نظام البكورة بحثاً عن اقطاعيات لهم في المشرق.

تفكك العالم الاسلامي وتنازع النفوذ السياسية عشية الغزو الصليبي:

كانت المنطقة العربية عشية الغزو الصليبي تعاني من تفكك حاد وتفشي حالة الفرقة والنزاع بين الامارات والكيانات السياسية التي كانت قائمة آنذاك وبلاد الشام والتي تمثل مسرح العمليات، وكانت تعيش حالة من التعقيد في أوضاعها السياسية والاقتصادية والدينية، فقد كانت تحكمها قوى مختلفة، وقد عصفت المنازعات بين هذه القوى، اما الخلافة العباسية كانت واهنة وقدراتها السياسية والعسكرية محدودة وخاصة بعد انتهاء عهد السلاطين الأقوياء (طغرلبك والب أرسلان وملكشاه)، وعلى الرغم مما كانت عليه بغداد الا انها كانت حريصة جداً من أجل المحافظة على الشام على اعتبارها جزء لا يتجزأ من ممتلكات الخلافة، أما مصر فقد كانت خاضعة للفاطميين وكانوا طامحين بضم بلاد الشام الى نفوذهم لأنهم كانوا يرون فيه امتداد طبيعي لمصر وقاعدة عسكرية متقدمة لصد هجمات الروم والعباسيين، أما بالنسبة لبلاد الشام فانها كانت تضم قوى سياسية تسعى كل منها لاستقلال البلاد بعيداً عن نفوذ الخلافة العباسية أو الانحياز للفاطميين في مصر، ولعل أبرز هذه القوى تتمثل بنو مرداس وآل الجراح والحمدانيين والكلابيين والفاطميين، وفي خضم الصراع قدم السلاجقة الى بلاد الشام واشتركوا في الصراع القائم، وقد حصلوا على تأييد المرداسيون، وتمت الخطبة للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي، وهذا الصراع أضعف بلاد الشام سياسياً، وفيما بعد احتدم الصراع بين السلاجقة والفاطميين، فعهد ملكشاه السلجوقي الى قائده أتسز الخوارزمي سنة ٤٦٥هـ بالمسير الى الشام فنظم الحملة وحاصر القدس واستولى عليها وحاصر دمشق الى أن استسلمت سنة ٤٨٨هـ ، واستمر الصراع بين السلاجقة والفاطميين حتى وصلت القوات السلجوقية الى داخل الراضي المصرية، ولرد هجمات السلاجقة عمد الأفضل بن بدر الجمالي الى تجهيز جيش فاطمي كبير بغية تحرير الأراضي المصرية وابعاد الخطر السلجوقي، وقد تمكن هذا الجيش من ابعاد الخطر عن الأراضي المصرية، وما زاد في تعقيد الوضع السياسي استقلال بعض أمراء العرب من بني مرداس وبني عقيل، إذ كانوا إمارتين في الامارة المرداسية والعقيلية، فضلاً عن هذا فان بلاد الشام كانت عرضة لهجمات الروم البيزنطيين، كما أن سنة ٤٨٨هـ تعد سنة فاصلة بالنسبة للحياة السياسية لبلاد الشام إذ توفي فيها الأمير تاج الدين تتش وبوفاته ساءت الأحوال واضطربت بلاد الشام، اذاً كانت هذه السنة بداية لانفراط عقد السلاجقة إذ اقتسم ابنيه رضوان ودقاق بلاد الشام، فأصبحت حلب للأمير رضوان، ودقاق استولى على دمش، ودخلا في صراع مستعر أججه الأتابكة بين الأخوين، فضلاً عن استمرار النزاع بينهم وبين الفاطميين الذين مازالوا يحاولون استعادة نفوذهم على بلاد الشام، فكل هذه الصراعات شتتت وحدة الأمة ودمرت قدراتها السياسية والعسكرية وأثرت تأثيراً كبيراً على أوضاع الناس، فتردت الزراعة وتردت الصناعة وتردى الاقتصاد بسبب فقدان الأمن والاستقرار وانتشرت المجاعات وسادت الفرقة بين الناس كنتيجة من نتائج القحط والعوز والبؤس، كما أن هذه الصراعات جعلت من كل مدينة خصم للمدينة الأخرى، وفي خضم هذه الصراعات دخلت أولى الحملات الصليبية الى بلاد الشام، فإذن نستطيع القول بأن أوضاع العالم الاسلامي وبلاد الشام بشكل خاص أسهمت في نجاح الحملات الصليبية بسبب ما

كانت تعانيه من اضطرابات سياسية، والبعض يرى بأن الحملات الصليبية قد كانت دقيقة في توقيتها إذ وصلت في وقت ملائم جداً لدخولهم ولنجاح حملتهم، فلو كانوا تقدموا قبل هذا الوقت بقليل لأبادهم السلطان ملكشاه السلجوقي ولو تأخروا قليلاً لقذف بهم عماد الدين زنكي في البحر الذي جاءوا منه، ومن هذا نفهم أن التوقيت الزمني كان ملائم لدخول الصليبيين في فترة الضعف والانحلال السياسي للمنطقة.

قيام الممالك الصليبية:

اقام الصليبيون بعد أن نجحوا في الاستيلاء على آسيا الصغرى وبلاد الشام عقب الحملة الصليبية الأولى عدد من الممالك مثل امارة الرها وأنطاكية ومملكة بيت المقدس وامارة طرابلس.

١- امارة الرها: كانت الرها تحكم في الفترة التي بعد الفونسو الكبير للقوات الصليبية على قوات السلاجقة واحتلال مدينة نيقية تخضع لحكم طوروس بن هيثوم الأرمني الذي حصل على سند شرعي في حكم الرها من الامبراطور البيزنطي، وظلت الرها مهددة من قبل السلاجقة الذين كانوا يحيطون بها، الأمر الذي دفع بحاكمها الأرمني أن ينظر بعين الرضا الى وصول الصليبيين الى هذه الديار، ولا يخفى على أحد موقف الأرمن المسيحيون الذين كانوا يشكلون الأكثرية من بين سكان آسيا الصغرى وشمال الجزيرة الفراتية ومشارف بلاد الشام مشجعاً للصليبيين، إذ فتحوا لهم أبواب الدخول الى الوطن العربي بل ساندوهم في عملياتهم الحربية.

٢- امارة انطاكية: بعد أن نجح الصليبيون في الاستيلاء على مدينة نيقية من أيدي السلاجقة عادت جيوشهم باتجاه انطاكية وذمت جيوشهم كبار الأمراء الصليبيون ويصحبهم المندوب البابوي (ادهمار) ووصلت اليها في ٢١ ت١ ١٠٩٧م، وكانت انطاكية تخضع لحكم الأمير ياغي سيان المعيّن من قبل السلاجقة وكان هذا فارساً كفوءً مقتدراً وكانت المدينة محصنة جداً فقام الصليبيون بفرض حصاراً شديداً عليها، فعسكر القائد الصليبي (بوهيمند) مع ٤٠٠ فارس أمام أحد أبواب المدينة وحاصرت القوات الأخرى المدينة منجهاتها المختلفة، وعمد الأمير ياغي سيان الى اخراج السريان والأرمن بحجة حفر خندق حول المدينة ومنعهم من دخول المدينة بغية تأمين الجبهة الداخلية.

٣- مملكة بيت المقدس: يعتبر بيت المقدس من أهم المدن والكيانات السياسية في الشرق الاسلامي، وعندما احتلها الصليبيون عدّوها أبرز مملكة صليبية في الشرق الاسلامي إذ تولت السيادة على الامارات

الصليبية الأخرى، فيحتل بيت المقدس مكانة دينية مرموقة ومقدسة من قبل المسلمين إذ أنها أول القبلتين وثالث الحرمين، أما بالنسبة للمسيحيين فانها ذات قدسية كبيرة على اعتبارها مدينة شهدت ولادة ومبعث وحياة السيد المسيح عليه السلام، هذا فضلاً عن أهمية المدينة الستراتيجية إذ أنها تعد أضخم المعاقل والحصون في عالم العصور الوسطى، كما أنها تتميز بموقع مهم، وهذه الأمور دفعت الصليبيين الى أن يعقدوا مجلساً بكنيسة القديس بطرس في انطاكيا في سنة ٤٩٢هـ واتفقوا فيه على اجتياح بيت المقدس.

٤- مملكة طرابلس: كانت مدينة طرابلس تحت حكم فخر الملك ابي علي بن حاول هذا الحاكم الاحتفاظ بمدينته عن طريق التقرب من الصليبيين والدخول في أحلاف سياسية معه الا ان الصليبيون كانوا مصممين على اجتياح المدينة، وقد واجهت هذه المدينة الخطر الصليبي الذي كان يقوده (ديموند الصنجيلي) سنة ٤٩٣هـ -١٠٩٩م، لكن محاولاته الأولى باءت بالفشل فقام سنة ٤٩٧هـ بالزحف من جديد نحو طرابلس فأقام معسكره في أرباض المدينة وشرع في تشييد قلعة تبعد ثلاثة أميال عن المدينة وتم استكمالها في السنة الثانية.

النهضة الشعبية في مواجهة الغزو الصليبي:

حصل الصليبيون على موطئ قدم في بلاد الشام والجزيرة الفراتية وأسسوا أربعة ممالك صليبية فيها هي الرها – انطاكيا – طرابلس – بيت المقدس، ولعل من الأمور التي اسهمت في وجود هذه الممالك في المنطقة العربية تعود أصلاً الى حالة الفرقة والتفكك السياسي الذي شهدته المنطقة العربية، إذ كانت الخلافة تعاني من حالة الضعف الكبير وهي في حالة خصام مع الفاطميين في مصر، كما ان بلاد الشام والجزيرة الفراتية كانت هي الأخرى بيد أمراء متغلبين أو أتابكيات منتشرة هنا وهناك ولم يكن هناك توافق سايسي أو أي نوع من أنواع التعاون السياسي أو العسكري في مواجهة المد الصليبي بل على العكس نرى بأن بعض الكيانات السياسية المتشاحنة قد تحالفت مع الصليبيين بغية الايقاع أو اضعاف بعض الكيانات السياسية العربية الا ان هذه الحالة التي تعد سمة رسمية لم تكن هي الغالبة اذا ما عرفنا أن المسلمين كان لهم موقف آخر وهذا الموقف تمثل في معارضتهم لمثل هذه الكيانات ولمعارضتهم للتواجد الصليبي، فبينما ان شعوب المنطقة الاسلامية كانت تسعى باتجاه ازالة الوجود الصليبي فانها تحتاج الى امكانيات وتحتاج الى قيادة وتحتاج الى تعبئة لاستنفارها بغية تحرير الأراضي العربية والدفاع عن المقدسات الاسلامية وتحجيم المد الصليبي المعارض له.

وقد نلمح بصورة جلية موقف بعض القيادات الفذة التي لم تبذل جهداً في استغلال هذا الموقف في كسب جولة خدمة للدين والعقيدة فمن العراق والموصل بشكل خاص خرج عماد الدين زنكي يقود جموع المسلمين بامكانياته المحدودة بغية صد الهجوم الصليبي ونحن نعرف بأن الصليبيين عمدوا الى عزل العراق عن الشام من خلال تأسيس مملكة (الرها) لأن موقع الرها يعد الفصل الرئيسي لطرق المواصلات فيما بين العراق وبلاد الشام وما

بين بلاد المشرق الاسلامي (بلاد فارس وخراسان وبلاد الشام) نحن نفهم من هنا أن أمرها كان بمثابة حامية عسكرية للممالك الاسلامية التي اقيمت في بلاد الشام، فإذاً كان عماد الدين زنكي أن يسقط هذا الكيان أو المملكة كي يصل الى بلاد الشام ولكي يوحد جميع المسلمين لمقاتلة الفرنجة الصليبيين.

س/ بين دور القائد عماد الدين زنكي في مواجهة المد أو التحدي الصليبي.

ج/ ان عماد الدين يمتلك رؤية عسكرية، جعل أولى أهدافه تحرير الرها فجهّز جيشه وشحذ هممهم وأعلن أنه سائر الى مدينة آمد لمحاصرتها، وانهمك في صراع وحروب في منطقة ديار بكر لكي يظهر للصليبيين أن مقصده ليس الرها، وهذا الأمر قاد بالأمير الصليبي جوسيلين الى مغادرة الرها، فما أن سمع عماد الدين عن طريق عيونه وجواسيسه المنبثين حول مدينة الرها حتى أسرع بالهجوم على مدينة الرها وضرب عليها الحصار وافتتحت المدينة عنوة على الرغم من حصانتها وامتناعها، وقد عامل عماد الدين زنكي النصارى من الأرمن وغيرهم معاملة حسنة وقد أشركهم في الكثير من الأمور حتى أنهم كانوا يتمتعون بشبه الاستقلال الذاتي، أي أنه سمح لهم بممارسة الطقوس الدينية، وكان هذا العمل بالهجوم المباغت والسريع الأكثر الكبيرفي عدم وصول الامدادات الصليبية للأمير جو سيلين من بقية الممالك، واعتبر فتح المسلمين للرها بمثابة فتح الفتوح على اعتبار أن هذا الفتح جاء بعد تداعيات كثيرة فشحذت الهمم وارتفعت معنويات المسلمين بعد انكسارها، وساروا يتأهبون لتحرير سائر الأراضي العربية، أي أن هذه المعركة كانت بمثابة الافاقة الاسلامية من نوم عميق، وفي ذات الوقت فان هذه المعركة كانت قد أثرت تأثير كبير على معنويات القادة الصليبيين فكل واحد منهم أدرك أن نهايته أصبحت وشيكة وبدأوا يستنجدون بأوربا كي ترسل لهم الرجال والسلاح والأموال، وقد أنعم الخليفة السلجوقي على عماد الدين زنكي بالكثير من الألقاب، وبعد هذه المعركة قام عماد الدين زنكي بمساعي عسكرية بغية تحجيم الصليبيين فاستولى على الطرق الممتدة من الموصل الى حلب وعلى بعض المناطق التي كانت لهم وحرر حصن سروج الذي يعد واحد من أهم الحصون الواقعة شرق مدينة الفرات وحاصر قلعة البيرة، وبهذا يكون عماد الدين زنكي قد أزال الوجود الصليبي عن كافة القلاع والأراضي الواقعة شرق نهر الفرات، وتجهّز ثانية لاجتياح مدينة دمشق التي كانت بيد أميرها ((معين الدين أنر))الذي كان متحالفاً مع الصليبيين، وبالفعل سار نحو دمشق وأطبق الحصار على قلعة ((جعبر علي)) التي تقع في الطريق، وفي أثناء الحصار الذي فرضه زنكي أغتيل عماد الدين زنكي وباغتياله سُرّ الصليبيين غاية السرور وبدأوا يخططون لاحتلال الرها ثانية الا أن محاولاتهم فشلت بجهود جيش عماد الدين ومساعدة بعض الأمراء لهذا الجيش، ومن بعده تزعّم الجبهة الاسلامي قائد فذ سار على خطى عماد الدين زنكي ألا وهو ((نور الدين محمود)).

بعد استشهاد عماد الدين زنكي سنة ٥٤١هـ اقتسم ولديه ممتلكات أبيهم فأصبحت أتابكية حلب من حصة نور الدين محمود في حين أصبحت الموصل من حصة سيف الدين، وقد قاد نور الدين محمود جيوش أبيه وعمره آنذاك ثلاثين عاماً فلم يكن صغيراً بحيث تتلاعب بمصيره أيادي الأمراء ولا كبيراً بحيث تعجزه ظروف المنطقة التي

تتطلب الكثير من الجهد والحركة، اذاً كان مصمماً على السير بخطى والده في مجابهة الصليبيين، كما أن مركزه في حلب أملى عليه أن يتأهب لتلك المواجهة اذا ما عرفنا بأن مدينة حلب تقع على مقربة من الامارات الصليبية في الشام مثل طرابلس وأنطاكية وبيت المقد، وقد تميز نشاط نور الدين الجهادي باتخاذ ثلاث منطلقات أساسية في التصدي تمثلت باتباع سياسة الردع وتوحيد جبهة المواجهة والهجوم المؤقت، وقد عمل على تحقيق هذه الأمور بصورة متداخلة فتراه مرة يشن هجوم على الصليبيين وفي ذات الوقت يزحف من جبهته ويدعو المجاهدين للالتحاق به، ومرة يتبع اسلوب المهادنة والهجوم المؤقت، فبالنسبة لعملية الردع تمكن نور الدين منذ الأيام الأولى لحكمه بصد هجمات أمير الرها السابق جو سيلين وهزمه قبل أن يتمكن من احتلال الرها، وعزز نور الدين موقفه في المدينة، وفي ذات الوقت نلاحظ أن حاكم طرابلس قد عمل الى ازعاج واشغال نور الدين عن طريق هجمات شنها على كل من حلب وحماه، فأرسل نور الدين قوة عسكرية بقيادة أسد الدين شيركو فاستطاع هذا من ايقاع الخسائر بالقوة الصليبية وضم بعض الحصون الى أتابكية حلب وبدأ الصيبيون يدركون قوة نور الدين محمود وتصميمه على قتالهم، وفي ذات الوقت عمل نور الدين محمود على ترصين الجبهة الداخلية وتحسين علاقاته مع المسلمين ومع الحكام والأمراء سواء في الشام أو خارج الشام بغية اسناده لحربه مع الصليبيين، فوطد علاقته مع سلاجقة آسيا الصغرى (الروم) عن طريق المصاهرة إذ تزوج من ابنة مسعود بن قلج أرسلان سلطان سلاجقة الروم، كما أقام العلاقة والمودة مع أخوته على وجه الخصوص ((سيف الدين غازي)) ومن ثم ولده ((قطب الدين مودود في الموصل))، وضم منطقة سنجار الى نفوذه سنة ٥٤٤هـ ، كما فكر نور الدين بضم مدينة دمشق لما تتمتع به هذه المنطقة أو المدينة من موقع استراتيجي بسبب قربها من مدينة حلب والقدس التي كان يرمي الى تحريرها، وقد حاول أن يستولي على المدينة الا أنها اعتصمت بوجهه فلذلك عمد الى اتباع الطرق الدبلوماسية بغية كسب سكان وحاكم دمشق الى جانبه، فعندما تعرضت دمشق الى هجمات صليبية سنة ٥٤٣هـ قام نورد الدين محمود بتسيير قواته لمقاتلة الصليبيين والدفاع عن المدينة، كما تزوج من ابنة قائد الجيش أنر يدين ويوثق العلاقات بينه وبين دمشق وفي سنة ٥٤٩هـ سيطر الصليبيون على مدينة عسقلان، وبما ان الطريق الى عسقلان سيمر عبر مدينة دمشق لذا فكر نور الدين في شق التلاحم ما بين أمير دمشق والقادة العسكريين، فعندما وهنت قوة المدينة قام نور الدين محمود بضمها الى نفوذه فأصبحت معظم بلاد الشام بيده باستثناء بعض الأماكن والممالك التي كانت بيد الصليبيين، وبعدها نلاحظ جهود نور الدين محمود الرامية بضم مصر ادراكاً منه بأهمية موقع مصر وباهمية مشاركة المصريين في الدفاع عن البلاد العربية ضد الهجمات الصليبية، أي من هذا نفهم أن سياسة نور الدين محمود الرامية لتوحيد الجبهة العربية عن طريق الدبلوماسية حيناً وان عجز عن تحقيق هدفه نراه يعمد الى استخدام القوة بغية تحصين الجبهة الاسلامية.

ونحن نعرف أن مصر في هذه الفترة كانت تخضع للحكم الفاطمي، وقد وجد نور الدين محمود مبتغاه في ضم مصر الى نفوذه، ففي سنة ٥٥٨هـ عنما كتب اليه وزير (العاضد الفاطمي) (شاور السعدي) يطلب مساعدته في اعادة تنصيبه وزيراً في مصر، تعهد بأنه اذا تولى الوزارة سوف يكون لنور الدين محمود وسوف يذعن الى

أوامره وتوجيهاته، فأرسل نور الدين محمود قوة عسكرية بقيادة أسد الدين شيركو لكي تقوم بالمهمة، وبالفعل نجح أسد الدين شيركو وتم اعادة شاور الى منصبه ولكنه انقلب على نور الدين محمود وتنصّل عن الاتفاق المبرم بينهمابل والأدهى من ذلك نلاحظ أن الوزير شاور قام باستدعاء الصليبيين لكي يتخلص من القوة الزنكية التي كان يتولى قيادتها اسد الدين شيركو والمتواجدة في مصر، وقد افلح اسد الدين شيركو من مقاتلة الصليبيين ونجح في استعادة منطقتين مهمتين هما (حارم وبانياس)، وفيما بعد استطاع أسد الدين أن يسيطر تماماً على مصر سنة ٥٦٤هـ بعد أن طهرها من الوجود الصليبي وبعد أن قدم خدمات جليلة للفاطميين بقضائه على ثورة السودان، وقد اكرمه العاضد الفاطمي بمنصب الوزارة، وبهذا يكون نور الدين قد وضع بيده على مصر واستفاد فائدة كبيرة من امكانيات مصر وموقعها الستراتيجي اذا ما عرفنا عجز الحاكم الفاطمي العاضد وأن مدار الأمور في مصر أصبح لأسد الدين شيركو، وبعد وفاة اسد الدين شيركو سنة ٥٦٤هـ تم اختيار ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن نجم الدين لمنصب الوزارة، وعلى ما يبدو أن اختيار صلاح لم يكن اختياراً اعتباطياً وانما كان مدروس من قبل الفاطميين من جهة وقادتهم العسكريين إذ كانوا يعولون على عجزه وفشله في مثل هذه المهمة لأسباب متعددة منها:

١- صغر سن صلاح الدين الأيوبي.

٢- اعتقادهم بأنه غير كفوء وسوف يتغلب عليه الآخرين وتضعف القوة الزنكية في مصر.

الا أن تسلمه للمنصب المشار اليه أظهر كفاءة ومقدرة وقوة حتى فاق جيشه جيش عمه أسد الدين شيركو وأصبح اسمه لامعاً بشكل كبير جداً، فعمد صلاح الدين الى ترصين الجبهة المصرية والى اسقاط الحكم الفاطمي واعادة مصر الى حضيرة الدولة العربية بعد أن أعلن الخطبة فيها للخليفة المستضيء بالله العباسي سنة ٥٦٧هـ، وهذه الجهود المبذولة من قبل نور الدين محمود وقادته الأكفاء أسد الدين شيركو وصلاح الدين عملت على تقوية جبهة المقاومة ضد الصليبيين وأصبح الصليبيون يخشون قوة نور الدين محمود، واستطاع نور الدين من اخضاع عدد من الحصون والمعاقل القريبة من حلب التي كانت تابعة لجوسلين الذي أسر في احدى القلاع وسيطر على الحصون القريبة من حماه وضم حصن (شيزر الشهير)، وبهذه الجهود استطاع من أن يضعف الامارات الصليبية في طرابلس وأنطاكية وبيت المقدس عن طريق عزلها عن الأراضي التي كانت تعتبر مورداً هاماً لخيرات تلك الممالك الصليبية فسيطر على الطرق المؤدية الى تلك الممالك الصليبية وحاول أن يطبق الحصار عليها، وأثار في نفوس الصليبيين الفزع والخوف وفرض عليهم حصار اقتصادي، فانتشرت فيها حالة المجاعة والعوز والفقر، وبذات الوقت نلاحظ أن نور الدين محمود الذي افزع الصليبيين وقام ببناء الشخصية العربية من جديد الرافضة لقوى الاحتلال والمتحمسة لجهاد الصليبيين، أي أنه حول حالة الانكسار والهزيمة الى نصرن الى جانب الانجازات الحضارية التي تحققت في عهد نور الدين محمود، فعمد الى تحصين مدن الشام وبناء المدارس والمستشفيات وتقديم العلاج والرقود مجاناً، وايجاد الخانات وبث الأمان والاستقرار في المنطقة، وتوفي نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ وخلفه ابنه الملك الصالح.

صلاح الدين الأيوبي ودوره التاريخي في توحيد جبهة المواجهة ضد الصليبيين:

صلاح الدين يوسف بن أيوب ولد في مدينة تكريت ومن ثم ارتحلت أسرته الى مدينة الموصل وانظم والده وعمه أسد الدين شيركو الى صفوف المجاهدين في جيش نورالدين محمود وقد تبوأ مراكز قيادية لديه وقد عرفنا بأنهما كانا على درجة من البسالة والشجاعة والمقدرة العسكرية، وقد تربى صلاح الدين في كنف هذه الأسرة المجاهدة فتعلم على يديه الفروسية وحب الجهاد كما كان مثله الأعلى نور الدين محمود، وقد اشتركا في صفوف المجاهدين لمقاتلة الصليبيين في بلاد الشام، وقد رافق صلاح الدين عمه عندما ارتحل بأمر من نور الدين الى مصر لتحجيم القوة الصليبية وصدّ اعتداءاتها البحرية في دمياط والاسكندرية، وقد اكتسب صلاح الدين خبرة عسكرية من خلال تعايشه لعمه أسد الدين شيركو، فضلاً عن الخبرة الادارية التي اكتسبها منه وخاصة عندما تقلد أسد الدين مهام الوزارة للحاكم الفاطمي، وبعد وفاة عمه أسد الدين تم تعيينه خلفاً له، فتقلد الوزارة للحاكم الفاطمي وأدرك صلاح الدين بثاقب بصره أن ظروف المرحلة تتطلب ترصين الصفوف العربية وتوحيد القوى الشعبية لمقاتلة الصليبيين، وان ما لحق بهم من خسائر وانكسارات كان مرجعه الى الفرقة الاسلامية، لذلك أدرك أهمية مصر من الناحية الستراتيجية ومن الناحية الاقتصادية واسهاماتها البشرية في رفد جبهة الشام في المواجهة المرتقبة، فلذلك عمد الى اسقاط الحكم الفاطمي في مصر سنة ٥٦٧هـ وأعلن تبعية مصر للخلافة العباسية إذ صدعت المنابر بالدعاء للخليفة العباسي المستضيء بالله، وتعد هذه الخطوة مرتكزاً اساسياً في التصدي للقوى الغازية، وقد سرّت هذه الأنباء القائد نور الدين محمود.

وبعد وفاة نور الدين محمود سنة ٥٦٩هـ استقل صلاح الدين في حكمه عنه ووريثه عماد الدين زنكي، وتعد هذه البداية الأولى لتأسيس ما يسمى بالكيان الأيوبي، وبدء صلاح الدين يخطط للمواجهة المرتقبة وقد قام بعدة اجراءات سياسية لجمع الشمل العربي وتعزيز نفوس المقاتلين ورفع معنوياتهم وتسليحهم بالسلاح بعد أن سلحهم بالايمان، وبدء في ذات الوقت باستخدام المهادنة حيناً والقسر ( ) حيناً آخر لبعض المعاقل والحصون الشامية سواء التي كانت بيد الحكام المسلمين أو التي كانت بيد الصليبيين، واستطاع أن يضم كل من دمشق وحمص وحلب وحماه والكرك وسنجار الى جانب هذه المدن من قرى صغيرة، وبهذا يكون صلاح الدين الأيوبي قد وحّد الجبهة الحربية وأحاط بالممالك الصليبية الآنفة الذكر، وفي ذلك الوقت بث مجاميع من جيشه لكي ترابط على ساحل البحر الأبيض المتوسط لكي تمنع وصول الامدادات البحرية الى الممالك الصليبية، وبدء يخطط لمعركة فاصلة بينه وبين الصليبيين، وفي الوقت ذاته كان صلاح الدين الأيوبي قد أرسل الى الأمراء والحكام والخليفة العباسي طالباً منهم المعونة واستنفار المجاهدين للالتحاق به والمشاركة في عمليات التصدي، وقد لبى نداءه عدد كبير من المسلمين سواء في خراسان أو خوارزم أو مدن العراق، كما أن الخلافة أمدته ببعض احتياجاته ومنها امداده بالنفط وبدء يفكر بشكل جدي ليضمن مكان المنازلة المرتقبة ألا وهي معركة حطين.

معركة حطين:

ذكرنا في المحاضرة السابقة جهود القائد صلاح الدين الأيوبي الجبارة في توحيد صفوف العرب المسلمين بغية مواجهة المد الصليبي المتمثلة في توحيد الصف العربي واستنفار المجاهدين من شتى البقاع الاسلامية، فتجمعت جموعهم عند صلاح الدين الأيوبي في منطقة (عشترا) وهو موضع بحرّان من أعمال دمشق سنة ٥٨٣هـ وبلغ تعدادهم بحدود ١٢٠٠٠ مقاتل، وسار بهم قاصداً الصليبيين، وفي ذات الوقت تجمعت جموع الصليبيين من الامارات الساحلية والممالك الصليبية وأطرافها حتى بلغ تعدادها بحدود ٥٠٠٠٠ مقاتل، والتقى الجيشان عند منطقة حطين الى القرب من طبرية في شهر تموز من سنة ٥٨٣هـ، وقد جعل صلاح الدين الأيوبي جيشه حائلاً أو حاجزاً بين القوات الصليبية وبين بحيرة طبرية بغية اضعافهم ومنعهم من الوصول الى الماء، وتجلت قدرة وكفاءة القائد صلاح الدين الأيوبي في التخطيط المسبق للمعركة وفق ستراتيجيات حددتها رؤيته لأهمية هذه المعركة إذ أدرك خطورة عامل الزمان والمكان في حسم النتيجة لصالحه، وقد روت لنا كتب التاريخ عن استدراج صلاح الدين الأيوبي للقوى الصليبية لفترة طويلة تقارب الثلاثة أشهر من الدخول في صدام عسكري لأنه كان يسمى لتحديد الزمن بغية الاستفادة منه في حسم المعركة، وقد حدد أن تكون ساعة المعركة في الأيام الأولى من شهر تموز المعروف بشدة حرارته كما حدد المكان، ونحن نعرف أن تحديد الزمان والمكان للقائد تعطيه أرجحيات التفوق على خصمه، جعل ساحة المعركة أي منطقة حطين وهي أشبه بوادي محاط بسلاسل جبلية وهي تشبه الى حد ما عنق الزجاجة، وقد جعل من بحيرة طبرية بعيدة عن متناول خصومه، كما أنه عمد الى فرش ساحة المعركة بأغصان المزروعات وخاصة الحنطة لما لها من أثر في انعكاس أشعة الشمس على عيون المقاتلين لأنها تتصف باللون الأبيض وله قدرة على عكس الأشعة، وعمد الى رشها بالنفط وهذه كان لها تأثير سلبي على خصومه القادمين من أوربا ذات الأجواء الباردة، وقد أمر جيشه بالانسحاب التدريجي أمام الصليبيين حتى أدخلهم في ساحة المعركة (حطين) التي حددها ومن ثم أطبق على عنق الزجاجة لكي يمنع خروج الصليبيين من ساحة المعركة، فعندما احتدمت المعركة بينه وبين الصليبيين بعد أن حرمهم من الماء وانتابهم العطش الشديد من قسوة الحر أمر جيشه بتسلق الجبال ورمي الصليبيين بالأسهم والنبال، وضرب بالمنجنيق ساحة المعركة وأوقد النار تحت أقدام الغزاة، استطاع أن يحقق نصراً كبيراً على الجموع الصليبية.

وتعد هذه المعركة من المعارك الحاسمة جداً في التاريخ الاسلامي إذ أنها تمثل بداية التصدي الفاعل للحروب الصليبية وقد أدخلت الفزع والخوف في قلوب الصليبيين وأضعفت من امكانياتهم في الامارات الصليبيةن وعدّت هذه المعركة بمثابة الطريق الى بيت المقدس، وعقب هذه المعركة عمد الصليبيين الى مراسلة أمراء وملوك وحكام أوربا يستدعونهم ويطلبون معونتهم لمواجهة صلاح الدين الأيوبي، وبالفعل استجابوا لندائهم فانطلقت الحملة الصليبية الثالثة باتجاه الشرق، وبعد هذا ارتفعت معنويات العرب المسلمين وسُمي صلاح الدين الأيوبي بـ

((الناصر))، فبدء يستجمع الجيوش من جديد وسار لدك معاقل الصليبيين في بلاد الشام فحرر عكا – قيسارية – عمورية – نابلس وعسقلان، ثم أرسل مجاميع من جيشه لتحرير المدن الساحلية ودك الحصون والمعاقل المجاورة لها ولم يبقى أمام صلاح الدين سوى السير الى بيت المقدس وبالفعل قصد بيت المقدس، فعندما تراءت له واقترب من أسوارها عرض السلم على الصليبيين كعادته في معاملة أعدائه، ولكنهم رفضوا هذا المبدأ، فحاصر المدينة وبدأ بضربها بالمنجنيق في شهر رجب من سنة ٥٨٣هـ، وهذا الأمر (أمر الحصار) كان له أثر كبير في اشتداد الضائقة الاقتصادية في بيت المقدس الى جانب انخفاض معنوياتهم في المواجهة بعد أن سمعوا عن صلاح الدين وانجازاته في معركة حطين وبراعة خططه العسكرية، كما أن هذا الأمر أثار الصراعات المذهبية داخل بيت المقدس.

وبعد حصار طويل استطاع صلاح الدين الأيوبي من اقتحام المدينة واستعادتها من قبضة الصليبيين وحررها بعد رضوخ للصليبيين دام قرابة تسعين عاماً، ولعل من أبرز الأمور التي دفعت صلاح الدين الأيوبي لتحرير هذه المناطق هي:

كثرة تجاوزات الصليبيين على القوافل التجارية وعلى السكان الآمنين في المدن والقصبات والقرى، ولعل تجاوزات (أرناط) صاحب الكرك على قوافل الحجاج واعلانه بأنه سوف يجتاح قلب الجزيرة العربية وينبش قبر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، كان المحرك الأساسي لصلاح الدين لتأديب هذا القائد الصليبي، وبالفعل قام ارناط بملاحقة الحجاج ودخل أراضي شبه الجزيرة العربية، وقد ارسل صلاح الدين جيشاً لمنعه وثنيه عن عزمه وتحقق له ذلك، وفي بيت المقدس عندما حررها صلاح الدين الأيوبي توقع الصليبيين توقع الصليبيين بأن صلاح الدين سوف يعاملهم بقسوة ثائراً لدماء المسلمين التي استبيحت عندما دخلها الصليبيين لأول مرة قبل تسعين عاماً عندما سفكوا الدماء، حتى ان المؤرخين وصفوا كثرة الدماء بأن حوافر الخيل تتزحلق فيها، وقد تعامل صلاح الدين مع سكان المدينة معاملة حسنة نابعة من صميم المبادئ الاسلامية، فلم يتعرض لطفل أو امرأة او شيخ كبير أو رجل أعزل، وأعلن بأن بيت المقدس سوف تكون مجمع الأديان وأعطى حرية التعبد.

علاقة هارون الرشيد بشارلمان:

لقد استغل بعض الكتاب والمستشرقون المصالح السياسية المشتركة بين الدولة العباسية والكارولنجية (الأفرنجية)، فبدأوا يؤلفون ويؤولون عن تلك العلاقات الى درجة بالغوا فيها، وأضافوا عامل الاسطورة والخيال والتهويل.

صحيح أن المصلحة السياسية كانت تدعو الدولتان العباسية والأفرنجية الى التقارب لأن عدوهما المشترك كان واحداً ألا وهو البيزنطيين والأمويين في الأندلس، فكانت الدولة العباسية في نزاع حربي مستمر مع البيزنطيين بينما كانت الدولة الأفرنجية في حروب مستمرة مع العرب الأمويين في الأندلس حيث كان العباسيون يعتبرون

الأمويين متمردين، وقاموا بعدة محاولات لاستعادة الأندلس وكان النزاع على أشده بين البيزنطيين والأفرنجيين حيث كان كل منهما يعتبر نفسه الوريث للمجد السياسي للامبراطورية الرومانية القديمة، ويبدو أن هناك سفارات متبادلة بين البيزنطيين والأمويين في الأندلس بسبب عداء الدولتين للأفرنج والعباسيين، إلا أن هذه العلاقات الدبلوماسية جاءت متأخرة قليلاً عن الفترة الموضوع فيها البحث، ان كل هذه المصالح المشتركة بين الأطراف المعنية كان من الممكن أن تؤدي الى صلات سياسية وعسكرية قوية، إلا أن مصادرنا لا تذكر عنها الا القليل الغامض، ورغم أن الدولة العباسية تركت السياسة الهجومية إلا انها كانت تمثل الجانب الأقوى في النزاع مع البيزنطيين طيلة العصر العباسي الأول.

كان المستشرقون يتحدثون دائماً عن العلاقات بين شارلمان وهارون الرشيد كحقيقة لا يرقى اليها الشك أو الطعن في صحتها ويستندون عند ذكرها الى التصورات الخيالية والواسعة الانتشار عن شخصية الخليفة هارون الرشيد وعن وقائع عصره الواردة في ((ألف ليلة وليلة)) ولا يستندون الى الأخبار الواردة في المصادر الموثوقة، فقد ذكرت الروايات اللاتينية أن شارلمان أمبراطور الأفرنجة بدأ يخاطب ودّ الخليفة هارون الرشيد حيث حدث بينهم تبادل الوفود والسفارات وكانت هذه الوفود تحمل هدايا مختلفة وثمينة من كلا الطرفين، كما أرسل شارلمان هبات الى الأماكن المسيحية المقدسة في فلسطين، وقد حمل بعض الباحثين الأوربيين هذه الروايات المفحمة بالخيال والغامضة في مصادرها الأصلية أكثر مما يجب، فابتدعوا اسطورة تاريخية جديدة فحواها أن شارلمان أصبح حامياً للأراضي المقدسة في فلسطين وأميراً على القدس بموافقة الخليفة مقابل أن يحاول شارلمان الاستيلاء على الأندلس باسم العباسيين ويقف ضد البيزنطيين ليحولوا دون تهديدهم البري والبحري للدولة العباسية، وأبرز من أيد هذه الفرضية هم ((دي ريان)) و ((فاسيلييف)) و ((بكلر))، كما أن هناك من المؤرخين العرب من أيد فرضية الحماية، فقد ناقشها الكاتب ((جيل نخلة)) و ((الاستاذ محمد عبد الله عنان))، أما بالنسبة للدكتور ((مجيد خدوري)) فقد ناقش هذه الاسطورة مناقشة موضوعية مسهبة معتمدة على المصادر، فكانت دراسته أحسن دراسة علمية حديثة الموضوع، فقد عُرف عن هارون الرشيد سياسته الدينية المتشددة تلك السياسة التي لا تسمح له بأن يعطي شارلمان حقاً او امتيازاً في الأراضي المقدسة بفلسطين أو يسمح لبطارقة الكنيسة الاتصال بعامل أجنبي، وكانت الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد تمر بمرحلة التفكك الاداري وانفصال الولايات، وقد حاول الرشيد كاجراء اصلاحي أن يقسم الدولة بين أبنائه الثلاثة فقد انفصلت المغرب وتونس عن جسم الدولة رغم اعترافها بسلطة الخليفة فكيف يفكر الرشيد باستعادة الأندلس وقد فقد شمالي أفريقيا؟ هذا بالاضافة الى أن الأراضي المقدسة في فلسطين وخاصة مدينة القدس ذات أهمية دينية وسياسية في وقت واحد، حتى ان بعض الخلفاء الأمويين كانوا يختارون اعلان بيعتهم فيها، كما بنى عبد الملك بن مروان فيها قبة الصخرة والمسجد الأقصى، واهتم الخلفاء العباسيون الأوائل بها حيث زاروها واصلحوا مسجدها فكيف يحق للرشيد بعد ذلك ان يعطي امبراطور الأفرنج امتيازات مهمة في فلسطين.

وبسبب سكوت مصادرنا العربية عن ذكر أية علاقة سياسية عسكرية بين العباسيين والأفرنج فلا يسعنا إلا القول بأنه إذا كانت هناك علاقات بين الطرفين فلابد أن تكون ودية لعب فيها التجار وبعضهم من اليهود دوراً رئيسياً بنقل الهدايا والرسائل والترويج عن تجارتهم.

ويعتبر المستشرق الروسي ((بارتولد)) أبرز من تصدى لهذه الأساطير في كتابه (تاريخ فلسطين) ورفضها رفضاً مطلقاً واعتبر آراء هؤلاء المستشرقين الذين كتبوا عنها آراء باطلة وعارية من الصحة من كل ما زعموا لأن هذا التخاذل لا يتناسب مع سياسة الرشيد وما بلغه من قوة وحكمة وروح العصر الذي عاش فيه، فالسياسة الدينية للرشيد تمنع ذلك، وكان ((بارتولد)) قد قرأ في بعض المؤلفات الأجنبية بأن هناك علاقة متينة بين شارلمان والرشيد وبدأ يتابع ويبحث عن تلك العلاقة في الكتب العربية فلم يجد لها أساس، واستغرب لوجود المعلومات عن هذه العلاقات في كتب الأفرنجة وعدم وجودها في كتب العرب، ونحن نعرف بأن المؤرخين العرب كانوا قد دونوا الكثير من المعلومات عن الطبري وابن الأثير وغيرهم، فمثلاً يذكر الطبري نهاية حوادث كل سنة، من توفي من المشاهير في تلك السنة، حتى أن المؤرخين يذكرون الحوادث البسيطة والغريبة، فمثلاً اذا حدثت مشادة كلامية بين شخصين فأنه يذكرها، فلماذا لا يذكر الطبري وفادة حضرت في عهد الرشيد، وهذا ما أثار استغراب بارتولد، كما أن الطبري كان يشير في نهاية حوادث كل سنة على أي شيء مهما كان بسيطاً وتافهاً ولهذا فهو يدون كل المعلومات.

كما أن ابن الساعي كان يماثل الطبري في ذكره للحوادث كأن يذكر كل شيء حتى طبيعة الجو، حتى أننا نجد أن ابن الساعي كان يذكر بأن ديك عند فلان ابن فلان كان قد باض، وهذا يجسد دقة المعلومات التي يتناولها المؤرخون فلماذا لا يذكرون الوفادة، وإذا صح وجود تلك الوفادة فلابد أن تكون معروفة لأن الخلافة كانت تهيء كل شيء لاستقبال الوفود والسفراء وصولاً الى بغداد، كما أن الدولة تحرص على تغيير حتى زيّ الجنود، فلماذا نجد الوفادة مسجلة عند الأفرنجة ولا توجد عند المسلمين، وهذا أثار استغراب بارتولد فبدأ يفتش عن الحقيقة، فما من أمة من الأمم لديها مؤرخون مثل العرب المسلمين من حيث العدد ومن حيث تناول كتابة التاريخ فكيف تغيب مثل هذه الحكاية ان صحّت.

نحن نعرف بأن شارلمان وحركة التراريخ في فرنسا لا تضاهي حركة التاريخ في العالم العربي فلذلك نجد الكتّاب في دولة الأفرنجة أرادوا أن يعطوا امتياز لشارلمان، يذكر لنا بارتولد الأسباب التي كانت وراء ادعاء كتاب الأفرنجة بهذه العلاقة وهي أن شارلمان كان على علاقة سيئة مع النورمان، وهؤلاء لهم صولات على مملكة الأفرنجة فلذلك بدأ شارلمان بايحاء منه للمؤرخين أشاعوا بأنه يرتبط بعلاقة وطيدة بهارون الرشيد إذ كانت القوة العربية هي أكبر قوة في تلك الفترة فأراد شارلمان اخافة أعدائه بارتباطه بالخليفة الرشيد هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى وهي الأهم أنه صور للمؤرخين الأفرنجة بأن هناك علاقة ووفد رسمي زار فرنسا وتم تبادل الهدايا

ومنها الساعة وغيرها وأعطى الرشيد لشارلمان مفاتيح القدس وهذا ما يصور تنازل الرشيد عن القدس لشارلمان، وهذا ما يتنافى مع شخصية هارون الرشيد الدينية.

وفي الواقع أن تلك الأقوال غير دقيقة لعدة اعتبارات هي:

١- لا يوجد نص عربي واضح وصريح يشير الى التحالف بين الجانبين.
٢- ان النصوص الأفرنجية سواء كانت الحوليات الملكية أو غيرها لا يرد فيها صراحة مثل ذلك الاتفاق أو التحالف.
٣- ان السفارات المتبادلة بين الطرفين اذا كانت موجودة فالهدف منها قد يكون لفتح أسواق جديدة للصناعة العباسية المتقدمة ولتنشيط عامل التجارة بينهما.
٤- لم يكن الخليفة العباسي هارون الرشيد يحتاج الى اذن من شارلمان لكي يحارب بيزنطة، إذ أن واجبه كخليفة للمسلمين يحتم عليه محاربة الكفار دفاعاً عن حدود دولة الاسلام.
٥- يعتبر الخليفة هارون الرشيد من أكثر الخلفاء المظلومين في التاريخ وذلك لأن كثيراً ما نسجت حوله روايات غير صحيحة.

وأخيراً يبقى هناك تساؤل وضعه أحد المستشرقين ألا وهو:

هل كانت هناك علاقات حقيقية خفية دون علم الخليفة بين بطارقة أورشليم وملوك الأفرنجة؟

ان هذه المسألة بقيت بدون إجابة.

الخلافة العباسية في ظل الخطر المغولي:

المغول:

أصل المغول وديانتهم:

المغول قبائل بدوية كانت تمتهن الرعي على اعتبارها الحرفة الرئيسية لهذه القبائل الى جانب اعتماد حرف أخرى مثل حرفة الصيد التي كانت المصدر الرئيسي لاعالة هذه القبائل، كما مارس البعض حرفة الزراعة وعلى نطاق محدود جداً وتتألف القبائل المنضوية تحت اسم المغول من ٣١ قبيلة، والزعامة لقبيلة المغل على اعتبارها القبيلة الأقوى بين القبائل، فلذلك انسحبت تسمية هذه القبيلة على سائر القبائل، أما سائر القبائل فيصطلح على تسميتها بالتتر، وقد استخدم هذا المصطلح بشكل جلي المؤرخ ابن الأثير في تاريخه وكان يقصد به مجموع القبائل المنضوية تحت سلطة قبيلة المغل، والشائع في التسمية هي القبائل المغولية حتى عند الروس كانوا معروفين بهذه

التسمية، أما الصين فكانوا يصطلحون على تسمية هذه القبائل بقبائل ، وعُرف عن هذه القبائل البأس والشدة والقسوة في التعامل إذ أن المجتمع الرعوي أملى على أفراده بأن يكونوا ذو قابليات ومهارات فردية عالية.

وهذا المجتمع يعتد بالرجولة اعتداداً كبيراً ، أما التنظيم الأسري لهذه القبائل فكانت السلطة فيه للرجل القادر على حماية الأسرة وعلى توفير القوت، أما موطن هذه القبائل فكانت هضبة منغوليا التي تمتاز بالأجواء القارية الحادة فتقل درجة الحرارة في فصل الصيف الذي يمتاز بالعصر الى ٦٠ درجة، أما فصل الشتاء فيكون بارد حد الانجماد وهذه الظروف الطبيعية أملت على هذه القبائل أن تكون قاسية وقادرة على تحمل الظروف المناخية، فكانت هذه القبائل تتخذ من سهول منغوليا مركزاً لهم في فصل الشتاء، أما في فصل الصيف فكانت تتخذ من الهضبة من الجبال موطناً لها، وبما أن هذه القبائل كانت تتصارع من أجل البقاء وتعتمد القوة في حياتها اليومية لذلك انساحت في الأطراف بغية توفير مستلزمات العيش لهم ولمواشيهم، وعندما توفرت لهم القيادة الطموحة صمموا الى تكوين امبراطورية عالمية تستحوذ على العالم، فبدأوا عمليات الاغارة على المناطق المحاذية لمنطقة سكناهم، وقبل الدخول في التفاصيل يجب أن نعرف أصل هذه القبائل، وعلى ما يبدو أن تحديد أصل هذه القبائل يعتليه الصعوبة لأن هؤلاء لم ينحدروا من جنس معين ولم تكن هناك صفات عرقية متشابهة بينهم ولكن يعتقد البعض أنهم ((الغالبية)) هم جنس من الأتراك ((القراغول))، أما ديانتهم فهي ديانات وثنية فقد آمنوا بعبادة بعض قوى الطبيعة فقد سعت القبائل المغولية القليلة التحضر من أجل الاستيلاء على العالم والاستحواذ على الممتلكات بشن غارات واسعة فاستطاعوا من اخضاع هضبة منغوليا لنفوذهم وامتدوا الى سيبريا وسيطروا على الممتلكات الروسية وامتدوا الى أوربا الشرقية وسيطروا حتى على هولندا كما أخضعوا الصين واجتاحوا العاصمة بكين وأصبحوا قوة عظمى وامتد نفوذهم باتجاه كاشغر واستولوا عليها وعلى المدن التي تقع خلف نهر سيحون ومن ثم عبروا النهر وأصبحوا على تماس بالامارة الخوارزمية الاسلامية، ويتعقد بعض المؤرخين بأن علاء الدين محمد خوارزم شاه كان قد أخطأ في حساباته عندما أسقط القوة الخانية سنة ٦٠٧هـ لأن هذه القوة كانت تمثل حاجزاً بشرياً صلداً بينه وبين القبائل المغولية ولو كانت الامارة الخانية قائمة لتصدت وأنهكت القوة المغولية وكان بمثابة درع واقي للخوارزمية، كما يلاحظ أن طموحات المغول لم تقف عند حد معين وأنها كانت تبتغي السيطرة على العالم القديم، وفي هذه الفترة بالذات وصلت القوات المغولية وأصبحت على تماس مع حدود الدولة العربية الاسلامية وأصبحت الامارة الخوارزمية في طليعة المواجهة، وتكمن خطورة المغول أنهم أصبحوا على مشارف وقبالة مدينتين اسلاميتين كبيرتين هما مدينة بخارى وسمرقند، ويلاحظ أن سلطان المغول ((الخاقان الأكبر)) كان قد عُرف بشدة مراسه وقسوته وفي ذات الوقت كان علاء الدين محمد خوارزم شاه يماثله في الصفات، وعلى ما يبدو أن القوة المغولية كانت تتجنب قبل أن تصطدم بالقوة الاسلامية فلذلك عمد الخاقان الى تسيير قوافل من التجار يمارسون التجارة الى جانب عمليات التجسس، وقد وصل هؤلاء الى مدينة أوتراد الخوارزمية الاسلامية، وقد ألقي القبض عليهم من قبل عامل المدينة وقد قتلهم علاء الدين محمد بعد أن أتهمهم بالتجسس لصالح المغول، وكان لهذه الحادثة أثر كبير على انعطاف العلاقات بين الطرفين، إذ عمد خاقان المغول الى ارسال وفادة سياسية الى

علاء الدين محمد يستفسر من خلالها عن مقتل التجار، وقد ارتكب خوارزم شاه خطأً غادحاً إذ أنه عمد على اهانة الرسل وحلق لحاهم وأرسلهم بصورة غير لائقة الى المغول، وبما أن الرسل يمثلون الخاقان فلذلك فسرت هذه الحالة على أنها اهانة للخاقان نفسه، وكان لهذه الحادثة أثر كبير في اشعال فتيل الحرب بين المغول والخوارزميين.

العالم الاسلامي عشية الغزو المغولي:

كانت الخلافة العباسية تشكو من خوراً في قواها السياسية إذ أن سلطة الخلافة في هذه الفترة لم تتجاوز حدود العراق الأقليمية، وفي ذات الوقت كانت الخلافة تعتريها مشاكل سياسية شائكة الى جانب وضع اقتصادي يكاد يكون متردي، إذ كثرت الفيضانات التي اجتاحت أراضي العراق ودمرت السدود والترع والقناطر، وهذا أدى الى خراب اقتصادي كبير، كما أن المنطقة شهدت انتشار بعض الأوبئة ومرض الطاعون الذي كان واحد من الأمراض الفتاكة في تلك الفترة، الى جانب هذا نلاحظ بروز الفرقة والتفكك السشياسي والديني، أما فيما يخص بلاد الشام فهي الأخرى تعيش حياة الفرقة والتفكك إذ شهدت وجود كيانات ساسية مستقلة متنافرة عقب وفاة القائد صلاح الدين الأيوبي حتى أن قسم منها كان لها تحالفات مع الصليبيين الذين كانوا يهددون الوجود العربي الاسلامي في تلك المناطق.

أما في جهة الشرق فنلاحظ أن الامارة الخوارزمية كانت قد سيطرت عليه بعد أن أسقطت الغوريين سنة ٦٠٢هـ والغانيين سنة ٦٠٧هـ وتفردت الامارة الخوارزمية بحكم المشرق الاسلامي فكانت هذه الامارة في حالة صراع كبير مع الخلافة العباسية إذ أن جذور هذا الصراع تمتد الى سنة ٥٩٠هـ عندما طلب الخليفة الناصر لدين الله من الخوارزميين محاربة السلاجقة والانقضاض عليهم، وبالفعل نجح الخوارزميون في اسقاط القوة السلجوقية وفي ذات السنة التي كانت بداية صراع حقيقي بين الخلافة والخوارزميين يأملون في أن يمدوا نفوذهم الى مدينة بغداد إذ اعتبروا من أنفسهم ورثة للسلاجقة وسوف يكون لهم وللسلاجقة، إلا أن الخليفة الناصر رفض ان يعطيهم مثل هذا الامتياز لذا عمد الخوارزميون الى الكشف السافر عن علاقتهم بالخلافة لذلك جهز علاء الدين محمد لاجتياح بغداد وتنحية الخليفة الناصر لدين الله من منصب الخلافة، ولكن هذا الهجوم فشل بسبب عوامل طبيعية أصابت الجيش في منطقة همدان الأمر الذي أدى الى انسحابه الى منطقة خوارزم ثم خلع الخليفة الناصر وعين بدلاً عنه (عبد الله الكندري)، وهيأ لهجوم جديد على مدينة بغداد سنة ٥٩٦هـ وأمام هذا التحدي السافر من قبل الخوارزميين

لم يجد الخليفة الناصر بداً غير ارسال رسائل الى السلطان غياث الدين الغوري يطلب منه فيها بمهاجمة خوارزم لثني عزم علاء الدين محمد عن قصد بغداد، وبالفعل قام غيثان الدين بمهاجمة خوارزم فما أن سمع خوارزم شاه بالاجتياح الفوري حتى عاد مسرعاً للدفاع عن حاضرته خوارزم، وبهذا فشل الهجوم الثاني ولكن الصراع استجد ما بينالخوارزميين وحلفائهم الخانيين من جهة والغور من جهة ثانية، وهذا الصراع أنهك القوى الاسلامية من حيث كون هذه الحرب هي حرب استنزاف للموارد والامكانات الاقتصادية والبشرية، فأصبحت هذه المنطقة ضعيفة غير قادرة على مواجهة الغزو المغولي، الى جانب هذا نلاحظ أن الخوارزميين كانوا قد اتهموا الخليفة الناصر بأنه هو الذي استدعى المغول لاجتياح خوارزم.

موقف الخلافة من التحدي المغولي:

عندما وصلت طلائع الجيش المغولي وأصبحت على تماس مع حدود الدولة العربية الاسلامية كان الانقسام السياسي بين الخلافة والخوارزميين على أشده، ونلاحظ بأن الخلافة كانت قد اتخذت عدة اجراءات وتدابير للحد من الاجتياح المغولي ولكن هذه الاجراءات لم تكن كفيلة لعرقلة التقدم المغولي وازالة الخطر المحدق بالخلافة، ولعل من أبرز هذه الاجراءات تتمثل في ارسال الخليفة الناصر لدين الله العباسي ٥٧٥-٦٢٢هـ مجموعة من جند الخلافة تزيد أعدادهم عن ٨٠٠ مقاتل من جنود الطواشية، اضافة الى أن الخليفة الناصر كان قد أرسل الى حاجب الموصل وأربل لكي يتظافروا ويلتحقا مع جند الخلافة ((الطواشية)) لايقاف الزحف المغولي في فترة مبكرة من تماسهم مع حدود الدولة، ونحن نعرف امكانية الخلافة السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلا أن ابن الأثير أشار في حوادث سنة ٦١٧هـ قائلاً ((إن صح ما أورده بعض الأعاجم في دفاترهم من استقدام المغول من قبل جهة اسلامية فانها الطامة الكبرى))، وفي حوادث سنة ٦٢٢هـ عندما ترجم للخليفة الناصر لدين الله عند وفاته أعاد نفس القول ولكن اشار صراحة باسم الخليفة الناصر لدين الله، وهذا الأمر يقودنا الى التأني والتمحيص في الرد على مثل هذه التقولات عن طريق الاستدلال العقلي والمنطقي التاريخي ولكي ندفع التهمة عن الخليفة الناصر نسيق بعض الحوادث والأمور لدفع هذه التهمة ونحن نعرف أن الخلافة العباسية خلافة تدين بالوحدانية والدين الاسلامي ومن غير الممكن أن يقوم خليفة مسلم بطلب العون والنجدة من قوات وثنية للقضاء على المسلمين أنفسهم، واذا اخذنا الحوادث السابقة نرى بأن كل المستقدمين هم مسلمين، من ناحية ثانية نحن نعرف بأن المغول قوة جبارة تمتلك العدة والعدد والامكانيات الاقتصادية الكبيرة جداً ونحن نعرف امكانيات الخلافة وحجم جيش الخلافة فبالمقارنة مع حجم الامكانيات نخرج بنتيجة ونستطيع القول ان من غير الممكن أن يأمر الخليفة الناصر القوات المغولية سواء بقيادة تيموجين (جنكيزخان) أو أحفاده اذا ما عرفنا أن القوة المغولية قوة وثنية فكيف يمتثل (الخاقان الأكبر) وهو وثني لأوامر خليفة مسلم أقل منه حجم وامكانيات، كما أننا نعرف أن القوات المغولية كان

هدفها منذ أن خرجت من هضبة منغوليا هو تحقيق مشروعهم الكبير في السيطرة على العالم والدخول الى أرض الخلافة، وكان وفق هذا المشروع أو المبدأ أضافة الى هذا أننا نعرف أن الخليفة الناصر كان قد أرسل جزءً من جيشه فرقة الطواشية وأمر صاحب الموصل وأربل من التجيش معهم لصد هجمة المغول، وبالفعل نلاحظ أن هذا الاجراء أوقف المغول لفترة طويلة من الزمن لأنهم كانوا يتخوفون من مواجهة الخلافة في مثل هذه الظروف.

ولو اردنا التصديق بهذه التقولات لكان من الممكن أن يحترم المغول الاتفاق المسبق بينهم وبين الخليفة الناصر وهذا الأمر سوف يجعلهم لا يعمدون الى اسقاط الخليفة وحاضرة الخلافة، ولو صح مثل هذا الاتفاق لعمد الخليفة المستعصم بالله الى اثارته عندما عقدت مفاوضات بينه وبين هولاكو عندما حوصرت بغداد سنة ٦٥٦هـ، ووفق هذه الأمور نستطيع أن نقول أن الخليفة الناصر بريء من هذه التهمة وكل ما أشير كان بفعل علاء الدين محمد خوارزم شاه خصم الخليفة الناصر وعدوه اللدود.

تيموجين (جنكيزخان):

ولد تيموجين وهو الاسم الأول لجنكيزخان سنة ٥٥٨هـ في واحدة من تلك القبائل المغولية، وقد فقد أباه وهو في الثالثة عشر من العمر فساء وضعه الاجتماعي والقبلي، إذ بدأ التفكك داخل قبيلته التي كان يتزعمها والده من قبل، ولكنه استطاع بعزمه وجلده وشجاعته وبمساعدة أمه أن يتولى زمام قبيلته وأظهر عند مرحلة الرجولة صفات منفردة من حيث الشجاعة والقوة والسياسة، وقد نجح في ضم القبائل المغولية الى جانبه وأصبح الزعيم الأكبر لتلك القبائل، وقد انتخب لنفسه مجموعة من المحاربين المغول وعينهم قواد لجيشه، واستطاع في بادئ الأمر أن يصطدم بامبراطور الصين في سنة ٦٠٨هـ فحقق الانتصار عليه واحتل أراضيهم وأسقط بكين سنة ٦١٢هـ، فأصبحت جزء من الممتلكات المغولية، ثم استدار نحو الغرب وقضى على قوة الترخطائيين سنة ٦١٥هـ وفرض سيطرته على القبائل التركية التي كانت خاضعة لها ومن ثم دخل في صراع مع الخوارزميين وقد استخدم الاسلوب السياسي والعسكري في اظهار تفوقه على خصمه علاء الدين محمد خوارزم شاه واستطاع من أن يقضي عليه سنة ٦١٧هـ، واستمر النزاع مع خلفه (علاء الدين منكبرتي)، ونلاحظ أن ادامة الصراع بين الطرفين أنهكت القوى الخوارزمية واستطاعوا من السيطرة على بعض المدن والقصبات الخوارزمية مثل بخارى – سمرقند – مازندران – همذان – أذربيجان – مراغة - بلاد الكرج، وقد طاردت القوات المغولية جلال الدين منكبوتي الذي كان يولي الأدبار ولم يواجه المغول في معركة حاسمة حتى تم استبعاده الى ((غزنة)) وقد لاحقه جنكيزخان فاجتاحها وخربها ومنها عاد الى موطنه الأصلي منغوليا حيث (قرة قورم) وفيها توفي سنة ٦٢٤هـ.

وبهذا نلاحظ أن جنكيزخان (الخاقان الأعظم) كان له الفضل في جمع شتات المغول وقبائلهم المتفرقة تحت زعامته وقد أشرف في اعدادهم وتسليحهم وقادهم في أولى مهماته القتالية في السيطرة على العالم، وفي سنة ٦٢٨هـ عاودت القوات المغولية من جديد هجماتها على المدن فاجتاحت أذربيجان وكانت قواتهم تطارد جلال

الدين الذي ذهب الى مراغة ثم وصل الى (آمد) ثم الى ميافارقين وبالتالي توفي جلال الدين وفي ذات السنة وأصبحت ممتلكات الشرق قاطبة تحت سيطرة القوات المغولية.

جهود الخلافة العباسية في التصدي للغزاة المغول:

لاحظنا بأن أول تماس للمغول كان سنة ٦١٧هـ و ٦١٨هـ على التوالين وهذا يعني في عهد الخليفة الناصر لدين الله العباسي، وعلى الرغم من ظروف الدولة وامكانياتها العسكرية والاقتصادية إلا أننا نلمح الى جهوده الرامية الى ايقاف تقدم المغول والمتمثلة في مكاتبة ملوك الأطراف وعلى وجه الخصوص صاحب الموصل وأربل، اضافة الى ارساله للفرقة الطواشية لصد هجمات المغول، كما نلمح أن القوات المغولية التي احتاطت للأمر ولم تتعرض للاغارة للسبب المذكور أعلاه، هذا فضلاً عن الخلافات الحاصلة داخل الهيكلية الادارية للمغول فتوقفت اعارتهم على المدن الاسلامية نوعاً ما، ((أما الخليفة الظاهر)) الذي تسلم الخلافة سنة ٦٢٢هـ فكانت مدة خلافته قصيرة إذ لم تتجاوز التسعة أشهر، وقد شهدت هذه الفترة هدوء نسبي للمغول وقد قضاها هذا الخليفة في تهدئة أوضاع الخلافة من الناحية الاجتماعية والسياسية، وعلى ما يبدو انه كان يرمي الى ترصين الجبهة الداخلية فقد أعاد ضريبة الخراج والعشر على ما كانت عليه في السابق وأزال كل الضرائب الداخلية والمكوس وقضى على كل البدع وحاول وضع أسس ادارية قادرة على تحمل مسؤوليات الخلافة في عصرها الراهن، حتى أن المؤرخين يشيرون الى ان سيرته تشبه الى حد ما سيرة العمرين عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز، وبعد وفاته تولى الخلافة المستنصر بالله العباسي سنة ٦٢٣هـ، وكانت القوات المغولية في سنة ٦٣٢هـ قد نشطت من جديد بعد أن استقرت القيادة لأحد زعمائهم المعروفين، فبدأوا بالهجوم على الدولة العربية الاسلامية من جديد، ففي سنة ٦٣٢-٦٣٣هـ هاجموا أربل، وفي سنة ٦٣٤هـ وصلت قواتهم الى سامراء وقد استطاع جيش الخلافة من ايقاع الخسارة بين صفوفهم بالقرب من مدينة تكريت واستطاعوا من فك أسر المسلمين من يد القوات المغولية، وقد عمد الخليفة المستنصر بالله الى عدة اجراءات احترازية ولكنها كانت متأخرة نوعاً ما، فقد قام باعلان الجهاد بعد أن أفتى العلماء أن الجهاد أكثر ضرورة من الحج في هذه الفترة بالذات، ومن اجراءاته أن عمد الى اقامة الاستحكامات حول بغداد، وفي ذات الوقت بحدود سنة ٦٣٥هـ قام المغول بالاغارة على مدينة (خانقين) فخرجت الخلافة لصد هجماتهم ولكن هذا الجيش قد هزم وكانت لهذه الهزيمة أثر كبير على نفسية الخليفة المستنصر بالله الذي تحسس الخطر وبادر الى مراسلة ملوك الأطراف الأيوبيين وأتابكيات السلاجقة واستنفر العرب من بواديهم لأمر الجهاد وأنفق الأموال لتجهيز الجيوش وتجديدها وتهيئتها حتى وصل عدد الجيش الذين لبوا ندائه بحدود مائة ألف مقاتل ولكن الجيوش تفرقت بوفاة الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٤٠هـ وتولى أمر الخلافة من بعده الخليفة المستعصم بالله وعلى ما يبدو أن تولية هذا الخليفة كانت بجهود القادة العسكريين والادرايين في بغداد إذ نحوا عمه المعروف بالخفاجي صاحب الخبرة والتجربة والحنكة والدراية وعرف أنه كان طموح بالتصدي للقوات المغولية حتى أنه

كان يقول ((إن ملّكني الله الأمر لأعبرن بالجيوش نهر جيحون وانتزع البلاد من التتار وأستأصلهم))، وعلى ما يبدو أن تعيين الخليفة المستعصم هو جزء من المؤامرة إذ أراد قادة الدولة تعيين شخص صغير السن لكي يتنفذوا في الأمر، ونلاحظ أن الخليفة المستعصم يعاب عليه أنه قليل الحزم وبأن حال الأمور السياسية والادراية جعلها بيد وزيره مؤيد الدين بن العلقمي وبيد قائد جيشه الدويدار الصغير، ونحن نعرف أن الخلاف كان كبير بين هاتين الشخصيتين وهذا أثر تأثير كبير على موقف الخلافة في تصديها الحازم للقوات المغولية ولكي لا نحمّل الخليفة المستعصم وحده مسؤولية سقوط الخلافة نقول أن الخلفاء الأربعة السابقين يتحملون وزر التداعي، ولكن الخليفة المستعصم يتحمل وزراً اضافياً إذ أنه انساق وراء ما يملي عليه وزيره مؤيد الدين بن العلقمي عندما أشار عليه بتسريح جيش الخلافة الذي استجمعه الخليفة المستنصر بالله، ونستطيع القول أن سوء الادارة في عهد الخليفة المستعصم كان لها أكبر الأثر في تداعي الخلافة العباسية إذ أن الخلافة كانت منخورة من الداخل، ولعل من الجدير بالذكر أن نشير الى مجموعة من الأسباب الرئيسية التي أدت الى تداعي الخلافة ومن ابرزها:

١- **العوامل السياسية:** وقد سبقت الاشارة اليها، وحسبنا أن نشير الى الضعف السياسي داخل الخلافة وهذا متأتي من تسلط كبار رجال الادارة مقاليد الأمور.

٢- **العوامل الاقتصادية:** فقد شهد العراق وبغداد على وجه الخصوص في هذه الفترة بالذات مشاكل اقتصادية كبيرة ناتجة عن سوء المواسم الزراعية وناتجة عن تعدد فيضانات نهري دجلة والفراتن وهذه كانت ذات أثر كبير جداً على المستوى الاقتصادي إذ انعدمت الحياة الزراعية، وبسبب هذا الأمر نزح المزارعين الى المدن ونزوحهم هذا أثر أثراً كبيراً على حياة المدينة، إذ انتشرت الحاجة والعوز والفقر وانتشار الكدية والتسول والمزاحمة في السكن فانفقد الأمن والاستقرار، كما شهدت هذه الفترة انتشار الأوبئة ومرض الطاعون، وكان أيضاً له تأثير على الوضع الاقتصادي، كما أن فقدان الأمن والاستقرار أضرّ كثيراً باقتصاديات العراق بسبب تعطل طرق التجارة.

٣- **العوامل الاجتماعية**: كان لها أثر كبير في حالة التداعي إذ عمد بعض رموز السلطة الادارية الى اثارة النعرات الطائفية داخل المجتمع البغدادي حتى وصلت الى حالة الصدام، وهذا يعني بأن مجتمع بغداد كنموذج مصغر لم يكن متوحد فيما بينه وبين الخلافة العباسية لا بل العكس حتى سعى بعض الأفراد الى الاتصال بالمغول وتقديم العون لهم بغية ايقاع الضرر بالطوائف الأخرى وهذه العوامل أو الأمور مجتمعة أسهمت بشكل فاعل في خلق حالة التداعي وقادت الى انهيار الخلافة العباسية وسقوط الحاضرة بغداد سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م.

ونستطيع القول أن:

- المرض العضال الذي أصاب الدولة هو الفتنة الطائفية والتي تزعمها كبار القادة فقد كان أحمد ابن الخليفة الناصر يقود جماعات ويغيروا على أسواق الرصافة وأحرق أسواقها، ونحن دائماً مع نظرية شبنكلر ((أن الدولة تسقط من الداخل)).
- كل دولة تستند بشكل على ادارتها وهنا الادراة منقسمة حيث كل رأي يطرحه ابن العلقمي ينقده ابن الدويدان وهكذا.
- في سنة ٦٥٠هـ كان فتور في هجمات المغول بسبب خلافاتهم الداخلية على العرش والمفروض تستفاد منها الخلافة والمسؤولية لا يتحملها المستعصم فقط بل الخلفاء الأربعة ومنهم المستعصم الذي يتحمل الوزر الكبير، ونجد أن القوات المغولية اندحرت في سامراء ولكن لم تستثمر الخلافة هذا النصر
- بدأ ابن العلقمي بتسريح الجيش وكذلك الخليفة والمغول على أبواب بغداد ومدعين العجز المادي وعدم قدرة الخلافة على دفع رواتب الجند وهذا غير مبرر لأن هولاكو عندما أخذ كل الكنوز من بغداد عاب هولاكو ذلك حيث قال له تجمع كل هذه الأموال ولم تقاتلني، اذن المسألة ليست مسألة عجز.
- نستطيع القول بأن الخليفة المستعصم لم يكن رجل الساعة.
- نستطيع القول بأن الخليفة متخاذل.
- نستطيع القول بأن الخليفة وقع تحت تأثير وزيره مؤيد الدين ابن العلقمي.
- نستطيع القول بأن هناك خيانة ومؤامرة مدبرة.

هولاكو يتوجه الى بغداد بغية اجتياحها:

((سقوط بغداد)):

توقفت غزوات المغول الى حد ما نتيجة للتطورات الداخلية للامبراطورية المغولية، فقد تولى على منصب الخان الأكبر من بعد جنكيزخان ثلاث خانات كان آخرهم منكوخان الذي حكم من سنة ٦٤٨-٦٥٨هـ وخلال تلك الفترة حدثت بعض الاضطرابات والفوضى التي تواكب مسالة ولاية العهد واختيار الحاكم الجديد، وهذه أثرت على النشاط العسكري الخارجي للامبراطورية المغولية، وما أن تسلم منكوخان مهامه الرئاسية وقضى على المنافسات الداخلية وخصومه ومنافسيه حتى قام برفد التوجهات الخارجية ومعاودة التوسع، فأوكل مهمة قيادة الجيوش في اتجاهات مختلفة لاحتلال العالم لأخوته ووقع اختياره على أخيه هولاكو وعين له حرساً خاصاً وجعل في معيته أسر متخصصة باستعمال أدوات هدم الأسوار وأرسل المرشدين أمام الحملة ليقودوها بسهولة عبر الطرق الى مقصدهم كما بث الجواسيس أمام الحملة ابتداءً من عاصمتهم (قرية قروم) والمناطق المراد اجتياحها لتلافي المخاطر والكمائن ومعرفة مكامن الضعف والقوة فيها، كما أردف منكوخان الحملة ببعض المتخصصين بنصب الجسور ووفر جهاز أمني متكامل، وربط تلك الحملة بشبكة بريدية متطورة اضافة الى ارداده بقوافل التموين

فسارت هذه الحملة سنة ٦٥٠هـ واستمرت خمس سنوات متكاملة حتى وصلت الى همذان سنة ٦٥٥هـ وفي الفترة (الخمس سنوات) استطاع من ضم مدن المشرق وايران بشكل خاص الى نفوذه والقضاء على قلاع الاسماعيلية سنة ٦٥٤هـ وأثارت حملته هذه الفزع في العالم الاسلامي نتيجة لما انتهجته هذه الحملة من اقتراف أبشع الجرائم وأقساهان فعسكر في مدينة همذان وكان وضع الخلافة متردياً من الناحية السياسية كما أنها شهدت في العام السابق غرق الكثير من الأراضي الزراعية وتلف محاصيلها، كما تلفت العديد من دور المدينة وعجزت مؤسسة الخلافة من اتخاذ سياسة ايجابية لحل مشاكل البلاد، كما أن المشاكل الاجتماعية المشار اليها آنفاً قد ألّبت الوضع الداخلي فصار المجتمع يعاني من الفرقة والانقسام اذا ما عرفنا أن القوى المتصارعة كان يساندها كبار رجال الدول مثل الدويدار الصغير (قائد الجيش) ومؤيد الدين ابن العلقمي (الوزير) إذ تناسى هؤلاء مسؤولياتهم الجسيمة وانغمروا في خلافات داخلية على المصالح الخاصة فأضعفوا الجيش وشتتوا الجبهة الداخلية، كما أن مؤيد الدين ابن العلقمي مارس دوراً خيانياً بموالاة المغول ومكاتبتهم وتمهيد غزو بغداد لهم، وقد أشار المؤرخون الى دوره الخياني المتمثل بمكاتبة المغول واستدعائهم، وفي ذات الوقت قام باقناع الخليفة بتقليل عدد الجند وتسريحهم كما أنه منع وصول رسائل ملوك الأطراف الى الخليفة التي كانت تحذره من الخطر المغولي فقام هولاكو بمراسلة الخليفة من همذان مطالباً اياه بالاستسلام وهدم حصون المدينة وردم الخنادق والحضور لمقابلته، وقد رفض الخليفة المستعصم وتوعد هولاكو بإثارة المسلمين ضده ان هو تجرأ على ايذاء الخلافة وطالبه بالعودة من حيث أتى، ويبدو أن موقف الخليفة هذا يعد موقفاً مشرفاً ولكنه جاء متأخراً ولم تكن تهديداته ترتكز على قوة فعلية رادعة وإلا بماذا نفسر صمته في تلك السنين التي سبقت وصولهم الى همذان، وبماذا نفسر تسريحهم للجيش، وعلى كل حال فان مسؤولية هذه الأخطاء والتأخر في أخذ موقف حاسم لا يتحملها الخليفة المعتصم فقط بل يتحملها رجال دولته والوزراء والحجاب والأمراء وقادته العسكريين وحاشيته، فقد أساء هؤلاء تقديم النصح له وهونوا من خطورة الواقع الماثل أمامهم والتمثل ، بل العكس فقد حبذوا له الاستسلام وبينوا له التفكك الحاصل في الجبهة الداخلية ولم تسفر تلك المراسلات عن نتيجة لتقدم هولاكو صوب بغداد وحاصرها بجيوشه الكثيفة من حيث العدة والعدد حتى قدرها المؤرخين بحدود ٢٠٠٠٠٠ مقاتل، وقد حاول جيش الخلافة بقيادة مجاهد الدين أيبك المعروف (بالدويدار الصغير) التصدي لهولاكو وجيشه، ورغم أنه حقق انتصار في البداية على بعض قطعات العدو إلا أنه عاد فانسحب الى داخل المدينة وأطب قالمغول حصارهم على المدينة وبدأوا برميها بالمنجنيق وساءت أحوال بغداد، وأمام هذه الحالة خرج الخليفة المستعصم بالله في الرابع من شهر صفر سنة ٦٥٦هـ من المدينة مستسلماً للقوات الغازية، واحتل هولاكو بغداد وقتل الخليفة العباسي مع ولده الأكبر الذي يدعى بـ ((أبو بكر)) وبعض خاصته فمارس الجيش المغولي الوحشية في قتل السكان وتدمير المشاهد الحضارية وأسقطوا بغداد الحاضرة العباسية العتيدة التي استمرت بحدود ٥٢٤ عام تمثل عاصمة للخلافة وبهذا عطلوا دورها الحضاري.

معركة عين جالوت ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م:

بعد سقوط بغداد حاصرت الخلافة العباسية واستباحتها من قبل القوات المغولية انهار الكيان السياسي للدولة العربية الاسلامية وارتحل قسم كبير من سكان مدينة بغداد وفقهائها وعلمائها قبل السقوط وبعد السقوط الى المدن الشامية والى مصر، واذا كانت مصر في هذه الفترة بالذات شهدت قيام حكومة المماليك التي قامت على أنقاض الأيوبيين، وتعد هذه الحكومة الفتية آخر المعاقل الاسلامية المتبقية وعُرف عنها أنها تمثل حكومة عسكرية من الطراز الأول ولم يحصل المشرق الاسلامي والعربي على قوة تضاهي قوة المماليك المصريين، لذا قرر هولاكو لاستكمال مشروعه الرامي للسيطرة على العالم وانهاء هذا الكيان السياسي، وشرع في اتخاذ التدابير اللازمة لانهائه، فسار على رأس الجيوش باتجاه بلاد الشام وأخذ يدك المعاقل والحصون تمهيداً لاجتياح مصر، وفي هذه الفترة بالذات كان على رأس حكومة المماليك السلطان قطز الذي بدأ باتخاذ تدابير لمواجهة القوات المغولية الزاحفة الى مصر، وقد وصلت هذه القوات الى فلسطين وفي هذه الأثناء حدثت اضطرابات داخل العاصمة المغولية (قرة قورم) الأمر الذي أجبر هولاكو الى أن ينسحب مع جزء من جيشه لتصفية تلك الخلافات وترك قواته الأخرى في الشام بغية استكمال مشروعهم القديم بقيادة كتبغا قائده المميز الذي شاطره في القيادة في كافة المعارك ابتادءً من ٦٤٩هـ وانتهاءً بالسيطرة على بعض المدن الشامية، وهنا تجدر الاشارة اليه ان كتبغا أحد المقربين من هولاكو وهو صهره، وقد أصرّ هذا على مواصلة السير باتجاه مصر، وصلت رسل المغول الى السلطان قطز تدعوه الى الاستسلام وعدم المواجهة فعمد السلطان قطز الى جمع مستشاريه والقادة العسكريين في مجلس حرب لتقرير مصير الدولة، وكان في المجلس ثلاث فئات طرح الأول فكرة الاستسلام للقوات المغولية أما الطرف الثاني فطرح فكرة الارتحال عن مصر وعدم الدخول في مواجهة مع القوات المغولية ادراكاً منهم بضعف امكانياتهم ولم يحدد القطر أو البلاد التي يرتحلون اليها، أما الطرف الآخر والذي كان يتزعمه السلطان قطز وقائده المحنك بيبرس كان رأيهم اعلان النفير العام ومواجهة القوات المغولية، واستطاع السلطان قطز أن يضم الى جانبه أصحاب الرأيين الآخرين وبعد هذا عمد الى قتل رسل المغول واستبق أحدهم، وكان لهذه الحادثة أثر كبير في رفع معنويات الجيش المصري كما عمل السلطان قطز الى اعلان النفير العام في مصر ودعى القبائل للانظمام اليه واقتصد في نفقات الدولة وجمع الأموال لتدعيم الجيش المصري وسار على رأس الجيش المصري لمقاتلة ومبادئة المغول بعد أن رأى أن الخطة تقتضي محاربة المغول خارج الديار المصرية كي لا يجعل من القاهرة مسرحاً لسير العمليات الحربية ويقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه المستعصم بالله من قبل، وبالفعل سار باتجاه الشام وتقدر الروايات أن جيشه يقدر من ٤٠ الى ٥٠ ألف مقاتل في حين تقدر الروايات أن الجيش المغولي يكاد يقترب من هذا العدد إذ بعض الروايات تذكر ٣٠ ألف مقاتل وبعضها تجعلها موازياً للجيش المصري، فعمد السلطان قطز الى رفع معنويات الجند واعدادهم اعداداً جيداً وأثار فيهم حماساً لمجاهدة المغول الكفار، وبدأ يخطط للمعركة المرتقبة بما عُرف عنه وعن قائده الظاهر بيبرس من خبرة عسكرية، فعمد الى سحب القوات المغولية الى وادي جالوت بغية استدراجها داخل الوادي وحدد أهدافاً للميمنة والميسرة التي كانت متجيشة خلف الجبل، فما ان دخلت القوات المغولية ذلك الوادي حتى انقضت عليها تلك القوات المتجمعة خلف الجبل وهاجمتها من الخلف وعاودت المقدمة

هجومها على القوات المغولية أيضاً فأصبحت القوات المغولية بين القوات الاسلامية فزادوا من ضرباتهم وأوقعوا خسائر كبيرة بين صفوف الجيش المغولي وقتل القائد ((كتبغا)) وأسر ولده وقتل عدد آخر من القادة وانتهت المعركة بهزيمة القوات المغولية هزيمة نكراء وقد لجأ بعض الفارين من ساحة المعركة الى الاختباء في منطقة تحوي على القصب فعمد السلطان قطز الى احراق تلك المنطقة وأباد تلك القوات، ومما تجدر الاشارة اليه أن المعركة وقعت في ٢٥ رمضان من سنة ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م، ثم تابعت القوات المصرية عملياتها العسكرية لتصفية جيوش المغول في بلاد الشام وفي المدن والقصبات والنواحي والقرى وبهذا حقق المصريون نصراً مؤزراً على القوات المغولية وأوقفوا تحدياتهم الرامية في السيطرة على العالم وأعادوا للعرب كيانهم السياسي المسلوب في بغداد، وأصبحت القاهرة ترث مجد بغداد، وقد استطاع العرب المصريون في هذه المعركة من الثأر لبغداد وما حصل فيها من خراب عام وقد سجل التاريخ بفخر بطولة السلطان قطز وقائده المحنك الظاهر بيبرس وقد احتفلت القاهرة احتفالاً كبيراً بهذا النصر المؤزر.

المصادر

د. محسن محمد حسين : جيش صلاح الدين الايوبي

د. محمد صالح القزاز : تاريخ العراق في العصور المتأخرة

د. نافع توفيق العبود : الدولة الخوارزمية

د. صالح حسن الشمري : العلاقات العربية البيزنطية في العصر الاموي